التربية
عند آباء البرية



آباء الكنيسة كمريين

التربية
عند آباء البرية

آباء الكنيسة كمربيين

THE
EARLY CHURCH FATHERS
AS
EDUCATORS

إعداد

أنطون فهمى جورج

الكتـــــاب : التربية عند آباء البرية (آباء الكنيسة كمربيين) .
إعـــــداد : أنطون فهمى چورچ .
المطـبعـــة : الأنبا رويس (الاوفست) ـ العباسية ـ القاهرة .
رقـم الايـداع : ١٠٣٨٢

يُطلب من :

كنيسة مارجرجس ـ اسبورتنج ـ الاسكندرية .
ص.ب. ١٧ الابراهيمية ـ ت. (٠٣/٥٩٦٩٨٨٨) .

كنيسة القديسين ـ سيدى بشر ـ الاسكندرية .
ت . (٠٣/٥٤٨٧٧٢٨) . .



قداسة البابا شنوده الثالث



مقدمة ومدخل

إن غاية التربية المسيحية فى فكر الآباء الأولين ، أن نقدم للرب تقدمات مقدسة وقربان مبارك ، خلال المناهج التعليمية والتلمذة الرهبانية .

فهدف التربية الآبائية هو أن نذوق وننظر ما أطيب الرب ونعيش الوصية عملياً ، تلك التى صاغها آباء البرية النساك فى منظومة تربوية تشتمل على طرق تعليمية تستعمل تارة التعليم اللفظى من وعظ وحوار وإرشاد ونصح وتوبيخ وتأديب ، وتارة أخرى تستعمل الأمثال والتشبيهات الرمزية والأقوال ، إلى جوار الوسائل التعليمية غير اللفظية من قدوة صامتة وتطبيقات عملية وممارسة الاعتراف وفحص الذات .

لاشك فى أن اختبار الكنيسة التلقائى المُعاش وخصوصاً عند آباء البرية مملوء من نماذج المرشدين الروحانيين الذين عرفوا جيداً طاقات وقصور الطبيعة البشرية ـ ادركوا إمكانياتها وحدودها ـ فانتهجوا نهجاً تربوياً سابقاً لعصرهم وجيلهم وكأنى بهم يقرأون فكر المعاصرين من التربويين فى القرن العشرين .

لذلك نجدهم وقد أخذوا بأسباب العلم وبالأساليب العلمية فى التنشئة... فتحدثوا عن الوراثة والبيئة وعن إمكانية التربية ونمو الشخصية ودور الأنشطة التربوية وأهدافها ، مؤكدين على عمل النعمة الإلهية .

فجمعت نظريات الآباء فى التربية بين الفكر المنهجى (التنظير) وبين

التلمذة العملية والطرق التعليمية (الممارسة) ، وكانت خطتهم تستهدف بناء الكيان المسيحى... فهم يعلمون ويسلمون منهج حياة ويدبرون ويقودون ويرشدون ، كرواد وكسباقين فى الأبوة والتربية .

وفى هذا البحث الذى استعنا فيه بكتاب «*Early Church Fathers As Educators*» لمؤلفه *Elias Matsagoras* ، نتناول آباء البرية من منظور جديد ، ذلك هو المنظور التربوى ، لنرى كيف كانوا مربيين حكماء... وبالتأكيد لم يكن للآباء موضع فى النظام التربوى فى زمانهم بل أن الناظر إليهم فى نسكهم وجهادهم يخال إليه أنهم لا يمكن أن يكونوا أبداً مربيين ، إلا أن أقوالهم وكتاباتهم تظهر أنهم كانوا ولا زالوا مربين حقاً .

وهكذا نجد فى ذلك مثالاً أخر للحقيقة المعروفة أن الكنيسة بفكرها وخبرتها ، لها دوماً إسهاماتها الخلاقة فى مجالات الفكر والثقافة والتربية والفن...

لقد انتهج الآباء نهجاً تربوياً متكاملاً عملاً وعلماً ، ممارسة وخبرة... بتنوع غنى فى المناهج التعليمية والطرق التربوية المتدرجة والمتنوعة التى تتناسب مع القامات والنفسيات المختلفة كل حسب استجابته وإمكانياته وقدرته الشخصية على النمو .

ويرى الكثير من علماء التربية المسيحية أن النمط المدرسى فى التربية المسيحية قد فشل فى أن يصنع مسيحيين حقيقيين ، لذا ذهب المحدثون إلى إعادة وإحياء الأسس التعليمية التى أرستها الكنيسة الأولى ، بالتركيز

على أسلوب التلمذة والإقتداء بالمثال والسلوك مع التأكيد على دور الوسط والبيئة فى مجال التهذيب والتربية .

وتأتى هذه الدراسة المتخصصة ضمن قصد سلسلة اخثوس ΙΧΘΥΣ فى تعميق المعرفة الآبائية قولاً وعملاً عند الخدام والمربيين وعند الدارسين بالمعاهد اللاهوتية ، وايضاً للاستفادة بما جاء فيها فى خدمة التربية الكنسية... من أجل نمو مسيحيين كاملين يتربون تربية كنسية آبائية ، يقودنا فيها جميعاً آباء البرية ، يقودونا إلى الأمام ، يغذونا بالتعليم ، يروونا بالماء الحى ، يقيمونا من سقطاتنا ، يعلمونا الطريق ويداومون على تنشئتنا جميعاً حتى نقدم أثماراً ، ثم يرشدونا إلى الراحة والأمان .

وهذه الدراسة نافعة:

١) ينتفع منها أى طالب يدرس تاريخ التربية ، وهى حقاً تسد فراغاً فى الدراسات الموجودة .

٢) هى مقدمة نافعة لبعض الموضوعات الأساسية فى تاريخ الكنيسة الأولى ومقدمة لتاريخ الرهبنة وإتجاهاتها .

فهى تشتمل على تاريخ النسك وتاريخ التربية المسيحية ، وتجمع بين طرق التعليم النسكى ونظام التربية الرهبانية ، لذا تنطوى على الجمال الحى المتمثل فى سيرة أجيال الكنيسة الأولى ، الذين تم غرسهم وبناءهم بطريقة سوية ، ألواناً وأزهاراً وأثماراً .

نقدم هذا البحث ضمن سلسلة اخثوس ΙΧΘΥΣ ، ونضعها فى يد النعمة لتأتى بثمر كثير فى حقول الخدمة ، راجين أن يقبلها المسيح

سيدنا وإلهنا وملكنا ، ويجعلها سبب بركة ومنفعة روحية لكل من يقرأ ، بصلوات صاحب القداسة **البابا شنوده الثالث** بابا المدينة العظمى الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧ أطال الله حياته .

إننا نشكر الله إلهنا الذى سمح لنا لنقدم هذه الخدمة بحسب رحمته ونتضرع إلى عظمته أن يبارك كل الجهود التربوية التى تقدمها التربية الكنسية والمعاهد اللاهوتية المتخصصة ووحدة التربية بمجلس كنائس الشرق الأوسط ، فتكون نهضة تربوية فى بلادنا وكنائسنا .

يسوع المسيح ربنا وإلهنا المربى والمعلم الصالح ، يقود خدمتنا ويهدى أقدامنا ويعين ضعفاتنا ويشد أنظارنا إلى أعالى السماء ، فنفتح أعين قلوبنا على المجد الأبدى وتستضئ أذهاننا بالنور السماوى ونتذوق معرفته الخالدة غير المائتة فنخدمه كما يليق بعظمته .

وللثالوث القدوس المبارك المجد والكرامة .

أنطون فهمى چورچ

اخثوس IXΘYΣ

٧ نوفمبر ١٩٩٥م

مدخل

١) هدف الدراسة

يتناول هذا الكتاب تاريخ التربية الذى رغم أنه لن يحل مشاكل اليوم ، إلا أنه يمكن أن يساعد على الوصول لفهم أفضل للتربية وعلى تقديم أهدافاً أكثر قيمة للطلاب .

ولما كانت التربية نقل لتراثنا الفكرى والروحى ، لذا لابد أن يتعرف المربون بصورة كاملة على أصول وتطور هذا التراث ، مما يجعلهم قادرين على دراسة أصول وتطور كل مشكلة ، وبالتالى على الوصول لأفضل فهم لها .

والهدف الأساسى من هذه الدراسة هو التربية فى القرون الأولى من حياة الكنيسة ، كما تتضح وتتمثل فى الأنشطة والكتابات التربوية للآباء ، إذ أن لهذه الحقبة من حياة الكنيسة مكانتها الهامة فى تاريخ المسيحية ، ليس فقط بسبب مراقيها وقاماتها الروحية ، بل وايضاً لأنها كانت فترة تكوينية تشكيلية للفكر المسيحى وللعديد من المؤسسات المسيحية .

وقد صار فكر الآباء الأولين عاملاً جوهرياً وحاسماً فى تشكيل الحضارة الغربية [١] ، التى تدين بالفضل للفكر الابائى من أجل بعض ملامحها الهامة ، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

وإحدى القنوات التى من خلالها أثرت المسيحية الحضارة الغربية

كانت الرهبنة ، وظهرت هذه فى القرن الثالث ، وسرعان ما صارت قوة جبارة مؤثرة فى حياة الكنيسة ، وبدأ تأثير الرهبنة فى القرن الرابع بكتاب القديس أثناسيوس الرسولى «حياة أنطونيوس *Vita Antonii*» والذى نال شهرة واسعة فى الثقافة البيزنطية وثقافة العصور الوسطى ، كما اشتهر ايضاً فى روسيا وكان له تأثيره على الحياة الروحية والفكرية هناك .

وتعرف الشخصيات الرهبانية باسم «آباء البرية *Desert Fathers*» وهم يمثلون مجموعة متميزة وهامة بين آباء الكنيسة ، وفى هذه الدراسة نوليهم اهتماماً خاصاً ، إذ لم تتناولهم أى دراسات منهجية سابقة من منظور تربوى بحت ، رغم أن سيرهم تتضمن عمليات مستمرة من التعلم والتعليم ، فالرهبنة ـ بل والكنيسة كلها ـ كانت مدرسة قوية بنظامها وأنشطتها التربوية ، ورغم أن أحداً من آباء الكنيسة الأولى ، بما فيهم آباء البرية ، لم يكتب قط أى عمل تربوى ، إلا أن هناك الكثير من الأفكار التربوية متناثرة فى كتاباتهم ، وقد تناولوا الكثير من الموضوعات الهامة مثل الوراثة والبيئة ، وربطوا بين النمو الروحى والنمو التربوى ، وتحدثوا عن طرق التدريس ، واجابوا عن السؤال الخاص بإمكانية التربية .

٢) تاريخ الرهبنة

سنستعرض هنا رؤية سريعة لتاريخ الرهبنة ، بما فيه من أصولها وروحها ونموها ، كخلفية تاريخية ضرورية لموضوع دراستنا .

أ) أصول ونشأة الرهبنة

لم تكن الرهبنة نوعاً جديداً من المسيحية ، بل نبعت من حياة الكنيسة ، ويمكننا أن نتتبع جذورها فى العهد الجديد .

فقد تحدث السيد المسيح عن هؤلاء الذين أُعطوا نعمة كافية لكى يخصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات (مت١٩ :١٢) ، والقديس بولس الرسول مدح كثيراً حياة البتولية (١كو٧ :٢٩-٣٤) ، وفى موضع أخر علم السيد المسيح تلاميذه أن يعيشوا حياة الفقر (مت١٩ :٢١) ، وفى رسائله تحدث بولس الرسول ممتدحاً حياة النسك والتكريس (رو٦ :٨، غلا٥، كو٣، ٢كو٤، تى٢ :١٢) ، والتى جاهد المسيحيون الأولون والرهبان ليحيوا بحسبها ، هذا بجانب تعاليم السيد المسيح ودعوته لترك العالم المادى والتحرر منه ، كما كانت حياة النسك التى عاشها إيليا ويوحنا المعمدان نموذجاً سعى النساك الأولون ليحتذوا به[٢]...

وهذه النماذج الكتابية تقدم نذرين من نذور الرهبنة الثلاثة الأساسية ، أى البتولية والفقر ، أما النذر الثالث فهو الطاعة ، وله ايضاً مراجعه وأصوله الكتابية كما يتضح من الفصل الثانى .

ويعتبر القديس كلمنضس السكندري مدير مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وتلميذه العلامة أوريجانوس علامتين متميزتين فى اللاهوت النسكى ، إذ جعلا الرهبنة ـ بل والمسيحية بصفة عامة ـ أكثر وضوحاً للعالم المتحدث باليونانية والمفكر بها .

ولم ينظر النساك الأولون إلى حياتهم كنوع جديد من المسيحية ، بل على العكس رأوا فيها عودة إلى الحياة الرسولية[٣] ، واعتبر كل من القديس الأنبا أنطونيوس الكبير (٢٥١ ـ٣٥٦م) والقديس يوحنا كاسيان (تنيح ٤٣٣م) مؤسس رهبنة الغرب ، أن الرهبنة هى استمرارية لحياة كنيسة الرسل الأولى[٤] ، والقديس چيروم ، والذى كتب فى الأعوام

الأخيرة من القرن الرابع ، قال أن المسيحيين الأولين اعتادوا أن يعيشوا حياة نسكية كما كان يفعل الرهبان فى زمانه(٥) .

فالنسك ملمح أساسي للرهبنة فى كل مكان وكل زمان ، لكن الكنيسة الأولى وكنيستنا الأرثوذكسية حتى هذا اليوم ، فهمت وعاشت المسيحية كديانة ذبيحية وكحياة نسكية ، أما الرهبنة فهى محاولة لتحقيق وتتميم كل الوصايا الموضوعة على كل مسيحى بجانب النذور التى يتعهد بها فى معموديته .

فحياة الرهبان النسكية لم تكن شيئاً «خاصاً» أو «إضافياً» بل تحقيق للمتطلبات والضرورات الموضوعة على سائر المسيحيين ، ولذلك كان ينظر للرهبنة أنها «معمودية ثانية» .

وثمة سمة أخرى للمسيحية الأولى ، ذلك أن الكنيسة كانت جماعة الذين جحدوا «العالم» واعتبروا أنفسهم غرباء فى الأرض ومواطنين فى المدينة العتيدة ، وقد كتب العلامة ترتليان الأفريقى* «ليس شيئاً غريباً عنا أكثر من أمور العالم»(٦) وهذا مثال واضح لتعليم الكنيسة الأولى ، وعندما بدأ اضطهاد ديسيوس فى عام ٢٥٠م ، أطاع الكثير من المسيحيين أساقفتهم وهربوا إلى البرارى حيث عاشوا هناك حياة نسكية تحت ظروف قاسية ، وصاروا أول نساك مسيحيين ، وعندما انتهى الإضطهاد ، لم يرجع البعض إلى مدنهم بل ظلوا فى البرارى حيث وجدوا فيها أفضل موضع لجهادهم الروحى ، ويعتبر إضطهاد ديسيوس السبب التاريخى الذى

---

*انظر كتابنا «العلامة ترتليان الأفريقى» ، سلسلة آباء الكنيسة ـ اخثوس ΙΧΘΥΣ .

جعل المسيحيين الغيورين فى الكنيسة الأولى متدربين ومعتادين على حياة الوحدة فى البرارى والجبال[٧] .

وعندما انقضى زمان الإضطهادات وجدت الرغبة القوية فى الاستشهاد كما ترسمها لنا أعمال الشهداء ، تعبيراً عنها وتحقيقاً لها فى حياة جحد الذات التى يعيشها الراهب ، وكانت الحياة الرهبانية فى ذلك الحين تعتبر «الشهادة البيضاء» أى شهادة بدون سفك دم ، والقديس مقاريوس الكبير كان يأخذ الآباء إلى قلاية مكسيموس ودوماديوس ويقول «هلموا بنا نعاين شهادة الغرباء الصغار»[٨] وكان للقديس باخوميوس ايضاً نفس هذا الفكر[٩] .

وكانت الرهبنة ـ ولا تزال ـ جزءً عضوياً من الكنيسة ، فالقديس أثناسيوس الرسولى فى كتابه «حياة أنطونيوس» يتحدث عن التوقير الكبير الذى كان القديس أنطونيوس يكنه لطغمات ورتب الكنيسة ، والقديس باسيليوس (٣٣٠ ـ ٣٧٩م) رئس أساقفة قيصرية الكبادوك وأحد أهم واضعى قوانين الرهبنة ، جعل الرهبنة فى خدمة الكنيسة والمجتمع بصفة عامة[١٠] .

وبالجملة ، كانت القوة الأساسية الدافعة وراء الرهبنة هى الروح الرسولية التى كانت ـ كما أسلفنا ـ نسكية ، تميل للاستشهاد ، ومليئة بالاشتياقات المجيئية الإسخاتولوچية ، وهذه الروح انتقلت إلى برارى وجبال مصر حيث استمرت حياة الكنيسة الأولى ، وولدت الرهبنة التى كان جهادها الأول هو «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة» (مت٧:١٤) .

ب) نمو الروح الرهبانية

إن سير وأعمال مشاهير آباء البرية ، والذين كان لهم دوراً هاماً فى تشكيل وصياغة الرهبنة ، تقدم لنا بوضوح صورة عن تطور ونمو الفكر والحياة الرهبانية .

وكان الأنبا أنطونيوس أول شخصية مؤثرة وهامة فى الرهبنة الأولى ، ويعتبر «أبو الرهبنة» رغم أنه لم يكن الأول فى ذلك المجال ، فقد سبقه أخرون فى حياة الرهبنة وعاشوا على حدود قرى مصر ومنهم أخذ القديس أنطونيوس إرشاده(١١) ، ولكن هؤلاء المجاهدين لم يعرفوا البرية البعيدة ، أما الأنبا أنطونيوس فقد دخل إلى «البرية الجوانية»(١٢) وبعد عشرين عاماً من حياة الوحدة ، خرج القديس أنطونيوس وقام بإرشاد الرهبان الذين عاشوا متتلمذين له ملتفين حوله .

وبسبب شهرة فضائله ، كان للأنبا أنطونيوس تأثيره الكبير على معاصريه و«اقنع الكثيرين أن يختاروا حياة الوحدة ، فنشأت الأديرة حتى فى الجبال ، وصارت البرية مدينة مليئة بالرهبان الذين تركوا مدنهم ودخلوا فى المواطنة السمائية»(١٣) .

وفى البرارى القبطية بمناخها الدافئ الجاف ، وبمغائرها الطبيعية فى الجبال ، وجد الآلاف من الرهبان الموضع المثالى لهم ليجاهدوا فيه ، ففى جبل نتريا وحده كان هناك خمسة آلاف راهب يعيشون بطرق متنوعة كما يخبرنا بالاديوس(١٤) .

أما الخطوة التالية نحو تنظيم أفضل للرهبنة ، فقد قام بها القديس

باخوميوس أب الشركة (٢٩٢ـ٣٤٦م) والذى أنشأ أول أديرته فى طبانيس *Tabennisi** عام ٣٢٣م ، وعند نياحته كان القديس باخوميوس قد أسس تسعة أديرة للرهبان ، وديرين للراهبات ، وكان إجمالى عدد هؤلاء الرهبان والراهبات نحو عشرة آلاف .

والقديس الأنبا باخوميوس ايضاً هو أول مُشرع رهبانى ، وكانت الفكرة الأساسية فى قانونه هى أن يضع قانون جهاد روحى مشترك يستطيع جميع الرهبان أن يتمموه ويبلغوه ، ثم يشجعهم بعد ذلك أن يرتقوا فى جهاداتهم لقامات أعلى ، كلٌ بحسب اشتياقاته وقدراته(١٥) .

وبعد الأنبا باخوميوس ، كان القديس الأنبا شنوده رئيس المتوحدين (٣٤٨ـ٤٦٦م) أهم شخصية فى الرهبنة القبطية ، وكان مشرّعاً شهيراً وكاتباً معروفاً باللغة القبطية ، وفى قانونه ، اختلف عن باخوميوس وتحدث عن نذر رهبانى مكتوب يوقعه الرهبان .

أما القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠ـ٣٧٩م) أبو الرهبنة الشرقية ، فقد قدم بقانونه فكرة الأديرة الصغيرة التى يضم كل منها ما بين ثلاثين إلى أربعين راهباً ، وأكد بالأكثر على التعليم وعلى الثقافة .

وكذلك انتشرت الحركة الرهبانية فى كل منطقة الشرق الأوسط ، وكان هناك رهبان فى وسط وصعيد سوريا بحسب سوزومين المؤرخ(١٦) .

وبنهاية القرن الرابع ، كانت الرهبنة قد تأسست فى جبل سيناء

* طبانيس : أو كما يلقبها البعض طبانسين معناها نخيل إزيس وهى تقع على الضفة اليمنى للنيل أمام بلدة دندرة فى المكان الذى يتجه فيه النيل إلى الغرب .

وأرمينيا وفارس (إيران) ، كان إيلاريون* ويوستاثيوس وشـاريتون *Hilarion, Eustathius and Chariton* هم رواد الرهبنـة فى فلسطـين بينمـا قـدم چيروم (٣٤٠-٤٢٠م) ويوحنـا كاسيان(+) الرهبنة للغرب ونشراها فيـه ، وسرعان ما صارت الرهبنة جزءً من خريطة حوض البحر الأبيض المتوسط ، وغدت قوة فعالة تستخدمها الكنيسة فى مواجهة الهراطقة والوثنيين(١٧) .

وكلمـة رهبنة ***monasticism***، والتى تعنى المؤسسـة التى تقيم وتنظم الظروف النسكية والإجتماعية للحياة المشتركة أو لحياة الوحدة التأملية ، تأتى من الكلمة اليـونانيـة «موناخـوس Movαχοσ » التى تعنى أصلاً «وحيد أو متوحد» وفيما بعد (ربما فى بدايات القرن الرابع) صارت تعنى الإنسان الذى يحيا حياة رهبانية حتى لو كان يحيا مع أخرين ، ويبدو أن أول استـخـدام لكلمـة مـوناخـوس بمعنى «راهـب» كـان فى «حـيـاة أنطونيوس» بقلم البابا أثناسيوس ، الذى يستخدم ايضاً كلمة «دير *Monastery*» رغم أنه فى سيرة الأنبا أنطونيـوس يجب أن تُفهم هذه الكلمـة بالمعنى اللغـوى الضيـق أى قـلايـة متوحد ، وليس مسكن لجماعـة من الرهبان كما صارت تعنى بعد ذلك .

وكلمتى « راهـب » و« ديـر » نـقـرأهما فى كتـاب «الأقـوال *Apophthegmata*» وفى كتابات بالاديوس وباسيليوس ونيلوس ، وتسمى حياة الراهب أو الراهبـة باسم «الحياة الرهبانية» وفى سوريا تسمى «ابيلوثـا *Abbiloutha*» أى «الحزن» ، وسوف نقدم فى الفصل الثانى من هذه

---

* انظر كتـابنا «القديس إيلاريون الكبير» ، سلسلة آبـاء الكنيسة ـ اختوس IXΘYΣ .

(+) انظر كتابنا «القديس يوحنا كاسيان» ، سلسلة آبـاء الكنيسة ـ اختوس IXΘYΣ .

الدراسة مصطلحات أكثر خاصة بالتدابير والرتب الرهبانية .

كان هذا عرضاً موجزاً للغاية للرهبنة الأولى ، التى استمرت وعاشت عبر القرون ، ولا زالت حية قوية مزدهرة حتى الآن .

المراجع

1) F. Woodhouse, *Monasticism: Ancient and Modern*, London,1896, p.2.
2) *Bios Pachomiou*. V.H.P.XL, p. 129.
3) J. Hannay, *The Spirit and the Origin of Christian Monasticism*, London, 1903, p.108.
4) O.Chadwick, *John Cassian*, Cambridge University Press, 1968, p.51-52.
5) Jerome, *Illustrious Men*, II, P.N.F., II, p. 365.
6) Tertullian, *Apology*, 38,3, P.L., 1,52B.
7) Eusebius, *Historia Ecclesiastica*, 6.42, P.G. 20,613A .
8) *Apophthegmata*, P.G. 65, 277B.
9) *Bios Pachomiou*. V.H.P.XL, p. 199.
10) K.Kirk, *The Vision of God*, London, 1941, p.117.
11) Athanasius, *Vita Antonii* (The Life of Antony), P.G. 26,884.
12) Ibid., 915.
13) Ibid.,865, tr. D. Chitty, *The Desert a City*, Oxford, 1966, p.5.
14) Palladius, *Historia Lausiaca*, P.G. 34,1020.
15) E.Morrison, *Basil and His Rule*, London: Oxford University Press,1912, p.40.
16) Sozomenus, *Historia Ecclesiastica*, P.G. 67,1396.
17) P.Brown, *The World of Late Antiquity*, London, 1971, p.96.

الإختصارات المستخدمة فى المراجع

A.N.F. = Ante-Nicene Fathers, ed. Al. Roberts (Buffal; 1885 ff).
F.T.Ch. = The Fathers of The Church, ed. R. Deferrari (Washington:1947 ff).
P.G. = Patrologia Graeca, ed. J.P. Migne (Paris: 1857-1967).
P.L. = Patrologia Latina , ed. J.P. Migne (Paris: 1844-1855).
P.N.F. = Nicene and Past-Nicene Fathers, ed. Schaff (N.York:1894ff).
P.OR. = Patrologia Orientalis, ed. F. Graffin (Paris: 1903 ff) .
V.H.P. = Vivliotheke Hellenon Pateron, ed. Apostolike Diakonia tes Ekklesias tes Hellados (Athens-Greece: 1955 ff) .

الفصل الأول

الأنشطة التربوية فى الكنيسة الأولى

Educational Activities in The Early Church

يُفهم موضوع هذه الدراسة الحاضرة أفضل فهم ممكن داخل مضمون الحركات الفكرية فى الكنيسة فى ذلك الوقت ، ولذلك يهدف هذا الفصل إلى تقديم الخلفية الفكرية اللازمة ، من خلال مناقشة ثلاث نقاط هامة:

١) الهيللينية والمسيحية ، أى موقف الكنيسة من الفكر والثقافة اليونانية .

٢) موقف الكنيسة من المدارس والتربية الوثنية الكلاسيكية .

٣) التربية المسيحية: معناها ، هدفها ، وممارستها .

١) الهيللينية والمسيحية

Hellenism - Christianity

إن الصراع الفكرى بين المسيحية والعالم الوثنى ، والذى بدأ بعظة بولس الرسول لشعبها ، استمر خلال القرون الثلاثة التالية أو أكثر ، فى المدن الكبرى مثل الاسكندرية ، حيث تواجهت هاتان القوتان فى ذلك التقاطع التاريخى ، وبالنسبة للكنيسة الأولى ، لم يكن الفكر الكلاسيكى مجرد سلاح يستخدمه الوثنيون ضد المسيحية ، بل كان يمثل ايضاً جدالاً داخل الكنيسة ذاتها ، لأن الكثير من المسيحيين الذين نالوا تعليماً

كلاسيكياً راقياً ارادوا أن يستخدموه للوصول لفهم أفضل للإيمان المسيحى ، بل وايضاً للدفاع عنه أمام هجوم وعداء الوثنيين ، وهكذا كان على المدافعين الأوائل أن يتكلموا اليونانية ، حرفياً ومجازياً ، إذ كانوا يخاطبون العالم اليونانى وكان عليهم أن يعبروا عن الرسالة الجديدة بمصطلحات يفهمها المفكرون المعاصرون لهم ، وكان تعليم اللاهوت المسيحى وظهور المفكرين المسيحيين الذين حاولوا أن يجمعوا بين الفلسفة اليونانية والفكر المسيحى ، أحد نتائج هذا الصراع بين المسيحية والعالم الوثنى ، وسوف نقدم هنا عرضاً موجزاً للمراحل المتتالية لهذا الصراع الفكرى ، وذلك بتقديم بعض المدارس التى يمثل كل منها إتجاهاً فكرياً متميزاً .

أ) المرحلة الأولى

يعتبر القديس يوستين الشهيد* (استشهد عام ١٦٥م) أهم مدافعى القرن الثانى ، ويعتبر ايضاً مؤسس الفلسفة المسيحية ، وقد حاول أن يمد جسراً بين الفلسفة اليونانية والفكر المسيحى ، شارحاً أن المسيح ، اللوغوس الأزلى ، كان يعمل فى التاريخ البشرى ، معلماً الحكماء الصالحين فى كل مكان ، يونانيين ويهود على السواء .(١)

وهكذا كتب يوستين قائلاً أن الكتابات الأفلاطونية والإنجيل قد عبرا كلاهما أساساً عن نفس العقيدة المختصة بالله والعالم ، أى أن الله منزه ،

---

*انظر كتابنا «القديس يوستين والآباء المدافعون» ضمن سلسلة آباء الكنيسة ـ اخثوس ΙΧΘΥΣ .

ليس له اسم ، غير جسدى ، غير متغير ،غير مائت ، بل ويمتدح تعليم أفلاطـون عن علاقة النفس بالله ، وإرادتها الحرة ، وعن الأصول الإلهية للعـالم المادى ، ومع ذلك يؤكـد يوستين ايضـاً أن الكتـاب المقـدس هو الاستـعلان الإلهى الكامل ، ولا يتردد فى أن يرفض الأفكار الفلسفية اليونانية التى تتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس ، وبصفة عامة ، يكن يوستين احتراماً كبيراً لأغلب الفلاسفة ، إذ يرى أنهم بحسب حياتهم الفكرية يعتبرون مسيحيين حتى ولو كان ينظر إليهم كملحدين.(٢)

وفى هذا الإتجاه الذى يؤمن بالعلاقة بين الفلسفة والمسيحية ، نجد ايضـاً القديس كلمنضس السكنـدرى (١٦٠-٢١٥م) وتلميذه العلامـة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) اللذين استمرا فى نفس خط يوستين الفكرى

وقد كتب كلمنضس قائلاً أن أفلاطون كان مقلداً غيوراً لموسى(٣) ، وقال العلامة أوريجانوس أن الفلاسفة يمكن أن يسهموا فى فهم الكتاب المقـدس ، وإنطلاقـاً من هذا الأساس ، قـدم هذان الاثنان خـدمـة جليلة للمسيحية وذلك بتقنينهما للفلسفة كوسيلة للدفاع عن الإيمان ، وبالرغم من أن المسيحيين الأقـل معرفة وتعلماً كانوا يرتابـون من الفلسفة وكانـوا ضدها ، إلا أن كلمنضس ـ المعلم العظيم فى الكنيسـة ـ استخدم الأدب الكلاسيكى اليونانى لأغراض تربوية ، بينما استخدم أوريجانوس ، العالم الشهير والمفكر الأصيـل ، الأدب اليونانى ليصـل لفهم وتعبير أفضـل عن العقيدة المسيحية ، فقد أرادا أن يظهرا أن الإيمان والمعرفة ليسا متناقضين ، وهكذا كان كلمنضس وأوريجانوس من أوائل الآباء الذين حاولوا التوفيق والربط بين الإيمان المسيحى والفلسفة اليونانية .

وقد اتبع العديد من آباء الكنيسة اللاحقين زمنياً هذا المنهاج الفكرى مثل يوحنا الدمشقى (القرن ٧-٨) ونيقولا كاباسيلاس (القرن ١٤) .

وعند مقارنة المسيحية بالفلسفة اليونانية ، يمكننا أن نقول أن المسيحية نافعة للجميع على السواء ، لأن حلولها لمشاكل المجتمع والأفراد مبنية على أساس الطبيعة الأخلاقية للإنسان ، وعلى الإيمان ، وهو بدوره متاح للناس جميعهم ، بينما كانت الفلسفة اليونانية متاحة فقط للمتعلمين والمثقفين ، وقدمت حلولها لعدد ضئيل من المفكرين[(٤)] .

كذلك كان التعليم الكلاسيكى يهدف لإعداد الإنسان للحياة الحاضرة فقط ، بينما رأت المسيحية الإنسان كابن لله ووريث لملكوت السموات ، لذلك كان مفهومها عن التربية أوسع من المفهوم الوثنى لأنها تضمنت بعداً جديداً ألا وهو البعد الروحى .

ب) المرحلة الثانية

أفسحت حكمة وفكر المعلمين السكندريين الطريق ومهدته للآباء الكبادوك الذين عاشوا فى العصر الذهبى فى الكنيسة ، وكان هؤلاء الآباء متحفظين نوعاً ما تجاه التربية الكلاسيكية ، خاصة القديس يوحنا ذهبى الفم (٣٤٧-٤١١م) أشهر آباء أنطاكية الذى كتب قائلاً: «لقد تركت عنى هذه الخرافات (يعنى الفلسفة) لأن الإنسان لا يمكنه أن يقضى كل حياته فى لعبة أطفال» .

أما أهم الآباء الكبادوك أى القديس باسيليوس (٣٣٠-٣٧٩م) وأخوه القديس اغريغوريوس النيصى (٣٣٥-٣٨٥م) وصديقه القديس

اغريغـوريـوس النزينـزى (٣٣٠-٣٩٠م) فقد كانـوا أقـل تحفـظـاً تجاه الفلسفة[٥] ، ورغم أن القديس باسيليوس ينبهنا أن نكون حذرين ونختار ما ندرسه من الأعـمال الكلاسيكية[٦] ، إلا أنـه لا يسـتطيـع أن يخـفى إعجابـه بالتعليـم الكلاسيكى ، وقد كتب ذات مرة[٧] إلى السوفسطائى الشهير ليبانيوس *Libanius* معبراً عن إعجابه به وبخطبته وبالفلسفة والتعليم الكلاسيكى .

وعندما نقارن بين هؤلاء الآباء الكبادوك الثلاثة العظام ، نستطيع أن نقول أن القديس اغريغوريوس النزينزى كان شاعراً نبيل النفس ، وصديقه الحميم باسيليوس ، المعلم المسكونى ، كان رجل عقيدة وعمل ، أما القديس اغريغوريوس النيصى أخو باسيليوس فقد كان فيلسوفاً متصوفاً... هؤلاء هم الكبادوكيين الثلاثة الذين كان لإسهاماتهم فى الفكر اللاهوتى وفى حل معضلة «الهيللينية والمسيحية» وفى نشر الحياة الرهبانية أثراً دائماً على الكنيسة الجامعة كلها[٨] .

على أية حال ، لم يكن هؤلاء الآباء جـميـعـهم قادرين تماماً على دحض الحجج التى قدمها المعارضون لـ «الفلسفة العالمية» منذ البداية ، ومن هؤلاء كان العلامة الأفريقى ترتليان الذى كتب متسائلاً: «أى إتفاق بين أثينا وأورشليم؟ بين الأكاديمية والكنيسة ؟»[٩] كذلك تعبر دسقولية الرسـل *Didasclia Apostolarum* ـ هى وثيقة من القرن الثالث ـ عن معارضة قوية للفلسفة وتقول :

«لايكن لك أى صلة بكتب الوثنيين...

فـأى صلة يمكن أن تكون للمـسيـحى مع كل هذه الأخطاء التى

تتضمنها؟

الكتاب المقدس ليس فقط يغذى الحياة الروحية

بل وايضاً يشبع الاحتياجات الثقافية...

كل هذه الكتب السمجة لابد أن ترمى بعيداً»[١٠] .

فى ذلك الوقت لم يكن الأدب اليونانى مجرد ميثولوچيا (أساطير) قديمة مائتة ، بل كان أداة فى يد الوثنية وديانة الدولة ضد المسيحية التى اضطرت أن تجابهه ، وهذا يفسر لنا لدرجة ما سبب هذا الرفض له ، وفى نفس الوقت يوضح عظمة عمل وتعب الآباء فى الجمع بين الجمال الكلاسيكى والحق المسيحى .

وباختصار ، نظر مفكرو الكنيسة الأولى إلى المسيحية كديانة ذات أبعاد مسكونية ، وادركوا أنه لابد أن يحدث تلاقى بينها وبين الثقافة المتوارثة الموجودة فى العصر قبل أن تستطيع أن تغير العالم اليونانى الرومانى... وهكذا بينما كانت الكنيسة تعمّد العالم المتحدث والمفكر باليونانية ، صارت هى نفسها هيللينية يونانية إلى حد ما ، وكانت الخطوة الأولى التى اتخذتها المسيحية فى طريقها نحو الهيللينية هى استخدام اللغة اليونانية ، وعندما دخل إلى الكنيسة بعض الفكر الفلسفى الذى لم يتعمد أى لم يتنقى ويتفق مع الإيمان القويم ، أدى ذلك إلى ظهور الهرطقات والبدع ، ويقول ترتليان: «حقاً الهرطقات نفسها نابعة من الفلسفة»[١١] .

٢) موقف الكنيسة من المدارس والتربية الوثنية الكلاسيكية

The Church's Stand with Regard to Classical Schools and Education

يتضح مما سبق أن آباء الكنيسة الأولى ادركوا لدرجة ما فائدة ونفع الفلسفة والثقافة الكلاسيكية ، وايضاً الحاجة للمعرفة العالمية غير المسيحية وهذا النوع من المعرفة كان يُقدم فى المدارس غير المسيحية ، والتى كانت بالتأكيد ذات سمة وطابع وثنى فى منهجها وموادها ، ومن المدهش أن الكنيسة فى عصر ما بعد الرسل - مع بعض استثناءات - لم تبذل أى جهد جاد لتأسيس مدارسها الخاصة لتعليم أبنائها الأدب والمواد الأخرى العالمية ، بالرغم من أنه كان أمامها مثال اليهود الذين أنشأوا مدارس خاصة بهم (١٢) .

وعدم وجود مدارس مسيحية فى ذلك الوقت تسبب فى حدوث حيرة:

١) هل يجب أن يلتحق الأطفال المسيحيين بالمدارس الوثنية ، بالرغم من الخطر القائم باحتمال أن يتأثروا بالمدرسة ويتزعزع إيمانهم؟

٢) هل تسمح الكنيسة للمسيحيين أن يقوموا بالتدريس فى مدارس وثنية ؟

ورداً على السؤال الأول ، جاءت إجابة معظم أباء الأطفال بالإيجاب ، فكانوا يرسلون أبنائهم إلى المداس الوثنية ، لكن بعد أن يوعّونهم وينبهونهم

إلى السم المُقدم هناك ، وحتى ترتليان المتشدد وافق على ذلك .

لكن ترتليان ، ومن بعده القديس يوحنا ذهبى الفم وضعا على الوالدين مسئولية أن يكونا متعلمين حسناً فى الإيمان المسيحى ، حتى لا يصير للتعليم والأدب الوثنى تأثير سلبى على الأجيال المسيحية الصغيرة ، وإذ وضع المسيحيون ذلك فى أذهانهم ، استمروا فى استخدام المدارس الوثنية الكلاسيكية دون أن يقبلوا الثقافة التى تقدمها ، ومع ظهور المدارس الرهبانية ، وجد الوالدان طريقاً بديلة يعلموا بها أبناءهم دون المخاطرة بإيمان الأطفال .

وبالإضافة إلى المدارس الرهبانية ـ واحياناً قبلها ـ كانت توجد مدارس فى عدة إيبارشيات ، فيخبرنا ثيؤدورت أسقف قورش عن المدرسة التى أسسها القس بروتوجينس *Protogenis*(القرن الرابع) حيث كان يدرس فيها الكتابة والاختزال بجانب التعليم المسيحى ، وكان بروتوجينس يستخدم المزامير وتعاليم الرسل كمادة للقراءة ، وليس النصوص الأسطورية الميثولوچية [(١٣)] .

كذلك لدينا تسجيلات عن شخص أخر يُدعى ايضاً بروتوجينس ، وهو كاهن من أديسا (نحو عام ١٥٠م) وكان يعلم أطفال كنيسته أوليات المواد المسيحية والكتابة والقراءة والترتيل [(١٤)] .

ومثل هذه المدارس كانت قليلة العدد وفى الغالب نتيجة لمجهودات بعض الكهنة النشطاء ، وفيما بعد أمر مجمع قرطاج المكانى (٤١٩م) الكهنة بإنشاء المدارس وتعليم الأطفال القراءة [(١٥)] ، ونفس هذا التشريع

كررته مجامع مكانية أخرى .

لكن كما ذكرنا قبلاً ، لم تكن مدارس الأديرة والكنائس كثيرة ، ولذا كان استخدام مدارس العالم «شراً ضرورياً» وكان هناك دوماً من يعترض عليه ، ومع ذلك حتى باسيليوس ابن الاسقف درس فى مدرسة عادية ، وقبله أرسل ألكسندروس بطريرك الاسكندرية تلميذه أثناسيوس إلى مدرسة غير مسيحية .

كان هذا هو حل المشكلة الأولى المذكورة عاليه .

أما المشكلة الثانية ، بخصوص المدرسين المسيحيين ، فكانت معضلة صعبة فعلاً ، ولم يكن هناك إجابة واحدة لهذا السؤال يتفق عليها الجميع .

فى البداية كان التدريس موضوعاً ضمن قائمة الأعمال التى يجب على الموعوظ أن يتركها قبل أن يستحق نوال نعمة المعمودية ، ويشرح ترتليان أسباب ذلك ، بينما نرى هيبوليتس الرومانى أكثر مرونة فى الحالات التى لا يكون فيها للموعوظ عمل أو تجارة أخرى يعمل بها .(١٦)

وفى الغالب ، يعبر هيبوليتس عن الفكر العام للكنيسة فى هذا الصدد والذى كان مرناً تماماً ، ومن المعروف أن أوريجانوس كان استاذاً للنحو ، وأناطوليوس *Anatolius* (من القرن الثالث) والذى صار أسقفاً للادوكية *Laedocia*، كان يشغل كرسى الفلسفة الأرسطوطالية فى الاسكندرية ، والكاهن مالكيون *Malchion* ايضاً كان مدير مدرسة فى أنطاكية ، وفى

زمان يوليان الجاحد (٣٦٢م) كان المسيحيون يشغلون كراسى الفلسفة فى أثينا وروما ، وهذا يوضح كيف كانت الكنيسة تقبل أن يعمل المسيحيون بالتدريس .

واخيراً مما هو جدير بالذكر أن كنيسة سوريا وكنائس «الأم البربرية» أى غير اليونانية ، قامت بمهمة تطوير أدبهم القومى ونظامهم التعليمى والتربوى وبصفة عامة حضارتهم وثقافتهم القومية ، فالاسقف رابولا *Rabboula*(تنيح ٤٣٥م) أسس مدرسة سريانية فى أديسا *Edessa*[١٧] والتى لم تكن مدرسة للموعوظين ، وفرمنتيوس *Frumentius* (القرن ٤–٥) ارتقى بالأثيوبية إلى مستوى اللغة المكتوبة ، وميسروب *Mesrob* ـ بحسب التقليد ـ صنع هذا الأمر عينه مع اللغة الأرمنية والغريغورية ، وإلفيلاس *Ulfilas* مع اللغة الجرمانية .

لقد احتاجت الكنيسة ـ كمؤسسة تربوية ـ أن يكون أعضاؤها متعلمين لدرجة ما حتى تستطيع أن تقوم بعملها ومهمتها ، ومتى كان الأعضاء غير متعلمين ، كانت الكنيسة تقوم بتعليمهم ، وهكذا قدمت المسيحية الثقافة الكلاسيكية إلى المواطن العادى البسيط .

٣) التربية المسيحية

Christian Education

بالنسبة للمسيحيين الأولين ، كان تعبير «التربية المسيحية» يعنى نوال معرفة عميقة ترقى فوق المعرفة العقلية ، الشعورية والعلمية ، بل هى «معرفة اختبارية» لـ «استعلان الحق» كما عبر عنه الكتاب المقدس وعقيدة الكنيسة ، وفى الوقت عينه ، كانت التربية المسيحية تعنى أيضاً التداريب) والحياة الأخلاقية بحسب القوانين والوصايا المسيحية ، ويمكننا أن نجد فكرة التربية المسيحية فى رسائل القديس بولس الرسول «أنتم أيها الأباء لا تغيظوا أولادكم بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره» (أف٦ :٤) .

وكان القديس كلمنضس الرومانى (٩٦م) هو أول من استخدم تعبير «التربية المسيحية» فى رسالته إلى أهل كورنثوس إذ يقول: «لابد أن يشترك أطفالكم فى التربية المسيحية»[١٨] ويعلم أغناطيوس ايضاً بأن واجب الوالدين هو أن يقدموا لأبنائهم تعليماً وتربية [١٩]، وقد استجابت لهذه الدعوة مونيكا والدة القديس أغسطينوس ، ونونا *Nona* والدة اغريغوريوس النزينزى ، وأنثوسا *Anthusa* والدة الأساقفة الثلاثة (القديس باسيليوس واغريغوريوس النيصى وبطرس) والقديسين الأربعة ، وقد كتب عنهن ليبانيوس *Libanius* البليغ بإعجاب قائلاً: «يا آلهة اليونان ، كم رائعات هن نساء المسيحيين».[٢٠]

أ) دور الأسرة

كان القديس باسيليوس يؤمن أن الوالدين لابد أن يقدما التربية الأولية للطفل خلال أعوامه الأولى ، وأكد على أهمية دور الأم ، وشرح فم الذهب أن الطفل لو تعلم فى صغره عادات أخلاقية حسنة ، فإن تعليمه وتربيته الأخلاقية فيما بعد لن تكون بالأمر الصعب ، بل أنه مضى قدماً وحدد الطرق المناسبة للتربية المسيحية مثل استخدام الأمثال ، التأديب ، الوصايا ، إلخ... وكان فم الذهب يرى ايضاً أن أحد طرق التربية المسيحية الهامة هى القراءة فى الكتاب المقدس وترتيل المزامير ، والتى يمكن أن يكون لها تأثيراً طيباً على نفس الطفل .

وقد نصح يوسابيوس القيصرى* ايضاً (٢٦٣-٣٤٠م)[٢١] بترتيل المزامير وقبله القديس يوستين الشهيد ، وفى كتابه التربوى «الطريقة الصحيحة للوالدين لتربية أطفالهم *The Right Way for Parents to Bring Up Their Children*» ينصح فم الذهب بسرد ورواية القصص الكتابية للأطفال كوسيلة تربوية فعالة ، بل وشرح كيفية رواية هذه القصص ، وهكذا تعتبر تعاليم الوالدين من ناحية ، وقدوتهم كنموذج للحياة المسيحية الفاضلة من الناحية الأخرى ، أساساً للتربية المسيحية التى يجب على الكنيسة تتميمها وتكميلها .

---

*انظر كتابنا «يوسابيوس القيصرى» ضمن سلسلة آباء الكنيسة اخثوس ΙΧΘΥΣ .

ب) دور الكنيسة

١) مدارس الموعوظين *Catechumenal Schools*

وجدت الكنيسة الأولى أن معظم الذين يريدون قبول الإيمان كانوا من أسر وعائلات وثنية وبالتالى لم يكونوا قد تلقوا تعليماً مسيحياً أولياً ولا كانت لهم معرفة بالإيمان الجديد ، وكى تعالج الكنيسة ذلك ، أخذت على عاتقها مهمة تعليمهم قبل معموديتهم ، وكان ذلك التعليم المنهجى ـ وهو مرحلة إعدادية للمعمودية ـ يسمى «وعظ» وأثناء فترة الوعظ ، كان الشخص يتعلم الأوليات البسيطة فى الإيمان والأخلاقيات المسيحية (تهيئة وإعداد) ، وفيما بعد فى القرن الرابع ، كان الموعوظ يعطى شرحاً للأسرار المسيحية العميقة ، كما يتضح فى العظة الرابعة من عظات القديس كيرلس الأورشليمي للموعوظين ، وكان لابد أن طالب المعمودية يقدمه أحد المؤمنين يسمى اشبين ، ولابد أن يختبره المعلمون المسئولون عن الموعوظين لكى يتأكدوا من أن الدوافع التى قادته للكنيسة والإيمان المسيحى دوافع روحية خالصة ، والاشبين الذى يزكى الموعوظ للمعمودية ، كان يلعب دوراً هاماً للغاية أثناء تلقيه تعليم الموعوظين بل وحتى بعد معموديته .

وكانت فترة التعليم الوعظى تمتد من٢ :٣ سنوات بالنسبة للشباب[٢٢] وأربعة سنوات للأطفال الذين من أسر مسيحية ، وهؤلاء الذين كانوا يعبرون عن رغبتهم (حديثاً) فى الإنضمام للكنيسة ، كانوا ينالون تعليماً خاصاً بهم وحدهم *privately* ويستلمون عناصر الإيمان المسيحى الأولية ، أما الذين كانوا قد قبلوا فعلاً كـ «مستمعين» فكان يسمح

لهم أن يحضروا جزء من الليتورچيا (قداس الموعوظين) يتضمن:

١) قراءات من الناموس والأنبياء والمزامير .

٢) دروس من أعمال الرسل والرسائل والإنجيل وعظة يلقيها الأب الأسقف .

وبعد عظته ، يبارك الأب الأسقف الموعوظين ، ويقول الشماس: «اخرجوا أيها الموعوظون في سلام» ثم تستكمل الليتورچيا بعد ذلك (قداس المؤمنين) ، فتعليم الموعوظين وايضاً تعليم المؤمنين كان مرتبطاً بالعبادة ارتباطاً صميمياً لدرجة أنه من الصعب الفصل بينهما .

أما الذين كانوا مستعدين لنوال صبغة المعمودية ، فقد كانوا يتلقون تعليماً خاصاً سابقاً للمعمودية يتضمن الصلاة الربانية وقانون الإيمان وعقيدة الثالوث القدوس والتجسد[٢٣] ، وكان المدرسون يختبرونهم عن طريق الأسئلة ، وبالإضافة إلى ذلك كان يطلب من الموعوظين أن يتدربوا على الحياة النسكية والفضائل الأخلاقية .

وكان تعليم الموعوظين يتم عدة مرات كل اسبوع في رواق الكنيسة ، وكان المدرسون من رجال الاكليروس أو من المؤمنين العاديين ، وكانت هذه المدارس تسمى مدارس الموعوظين ، وكانت توجد في كل مكان يوجد فيه مسيحيون منذ البداية الأولى للمسيحية ، وكانت مفتوحة لأى إنسان جاد يتقدم طالباً الإلتحاق بها ، من أى طبقة إجتماعية ومن أى جنس ومن أى سن .

وعلى أية حال ، لم يكن هذا التدريب والدراسة ينتهى بالمعمودية ، بل

كان يستمر طوال الحياة ، متعمقاً أكثر فأكثر فى معنى وجوهر الحياة المسيحية .

٢) المدارس التعليمية *Catechetical Schools*

بجانب مدارس الموعوظين ، كانت هناك ايضاً مدارس تعليمية ، وهذه كانت مؤسسات تقدم مستوى متقدم من التعليم اللاهوتى المسيحى ومن التعليم الكلاسيكى ايضاً .

مدرسة الإسكندرية

تعتبر مدرسة الاسكندرية اللاهوتية من أشهر المؤسسات التعليمية فى التراث المسيحى ، ويبدو أنها كانت موجودة فى زمان مبكر جداً ، وفى منتصف القرن الثانى الميلادى صارت مدرسة هامة للغاية للاهوت المنهجى ، وكان العلامة بنتينوس (١٨٠م) وكلمنضس السكندرى وأوريجانوس وديديموس الضرير* من أشهر الأسماء التى اقترنت بها ، وإلى أوريجانوس يرجع الفضل فى تطويرها وتحديثها ، لكن كلمنضس معلمه هو الذى مهد الطريق له ، وقد قسّم أوريجانوس المدرسة إلى قسمين ، الأول تحت اشراف هيراكلاس[٢٤] ، والثانى للدراسات المتقدمة وكان يدرّس فيه مستوى متقدم فى اللاهوت والتفسير والفلسفة والهندسة والرياضيات ، كما كان هناك ايضاً مواد أخرى مثل النحو والبلاغة والموسيقى والفلك[٢٥] ، وكان الطلاب يستخدمون مكتبة جامعة الاسكندرية والمعروفة باسم «الميوزيم *Museum*».

---

* انظر كتابنا «ديديموس الضرير» ـ سلسلة آباء الكنيسة ـ اختوس ΙΧΘΥΣ .

ولم تكن مدرسة الاسكندرية هذه ـ والتى كانت تُعرف باسم «الديدسكاليون διδασκαλειον أى مدرسة» ـ مدينة بنجاحها لمعلميها الأفذاذ المشهورين فقط ، بل وايضاً لمناخ المدينة بجملتها ، والذى كان مناخاً ثقافياً متميزاً ، فقد كان الناس يعيشون فيها لأجل الآداب والمعرفة فقط(٢٦) ، واخيراً لم تكن مدرسة الاسكندرية مجرد مدرسة ، بل كانت تمثل حركة فكرية لاهوتية ظهرت وبلغت ذروتها فى الاسكندرية وتبعت أوريجانوس إلى قيصرية .

مدرسة أنطاكية

وكانت هذه ثانى أهم مدرسة ، وقد أسسها لوسيان (٢٤٠-٣١٢م) ، وقدمت للكنيسة مفسرين عظماء مثل يوحنا فم الذهب ، إبيفانيوس* ، كيرلس الأورشليمى ، كما قدمت ايضاً رئيس الهراطقة آريوس .

كذلك كانت أنطاكية مركزاً للمعرفة اليونانية مما اتاح للاهوتيين الأنطاكيين إمكانيات رائعة لدراسة الفلسفة والبلاغة .

وقد تميزت مدرسة الاسكندرية باستخدام المنهج الرمزى فى التفسير بينما استخدمت مدرسة أنطاكية المنهج النقدى والحرفى .

مدرستى نصيبين وأديسا

كانت مدرسة أديسا أشهر المدارس غير الناطقة باليونانية ، ويروى التقليد أن القديس مارأفرآم السريانى هو الذى أسسها عندما نقل مدرسته من نصيبين إلى أديسا والتى كانت داخل حدود الامبراطورية البيزنطية ،

---

*انظر كتابنا «ابيفانيوس» ـ سلسلة آباء الكنيسة ـ اختوس ΙΧΘΥΣ .

وكان ذلك عندما سقطت نصيبين في يد الفرس عام ٣٦٣م ، ولكن مدرسة نصيبين سقطت فى النسطورية إذ عندما وجد العديد من النساطرة الحماية تحت حكم الفرس ، اجتمعوا فيها .

وكانت تغلب على مدرسة أديسا السمة الرهبانية ، بل وحتى مبانيها كانت منظمة كأنها دير[٢٧] ، وكان المنهج يتضمن دراسات كتابية وتاريخية وتفسير وفلسفة يونانية وبلاغة .

بجانب هذه المدارس التى تناولناها ، كانت هناك مدارس أخرى عديدة مثل مدرسة قيصرية التى أسسها العلامة أوريجين ، ومدرسة سلوقيا *Seleucia* ومدرسة روما ، وبعض من هذه كانت معاهد للاكليروس ، لكن لم يضاهى أى منها مدرسة الاسكندرية أو أنطاكية فى الأهمية .

كما أن الكنيسة نفسها يمكن أن تُسمى مدرسة ذات أهمية عظيمة ، فالمسيحية كانت تريد أن تغير العالم ، واتخذت من تعليمها وسيلة أساسية لتحقيق ذلك .

المراجع

1) Justin the Martyr, *Apology*, II, 13,A.N.F. I, p.193.

2) ______________, *Apology*, I, 46, P.G. 6, 39.

3) Clement of Alexandria, *Paedagogus*, II.2, V.H.P.,7, p.214.

4) P. Monroe, *History of Education*, N.York, 1906, p.222.

5) W.Jaeger, *Two Rediscovered Works of Ancient Christian Literature: Gregory of Nyssa and Macarius* (Leiden: 1954) p.34.

6) Basil, *Quod Mundanis....*, P.G. 31,563-590.

7) Basil, *Letter to Libanius*, P.N.F., VIII, p. 325.

8) J. Quasten, *Patrology*,1950-1960, III, p.203.

9) Tertullian, *Against Heretics*,7, A.N.F., III, p.246.

10) *Didascalia Apostolorum*, ed. Fr. Funk, II. p.51 .

11) Tertullian, *Against Heretics*,VII, A.N.F., III, p.246.

12) H. Marrou, *A History of Education in Antiquity*, N. York,1964, p.422.

13) Theodoret, *Historica Religiosa*, IV. 15, P.G. 82,1157.

14) P.McCormick, *History of Education*, Washington, 1957, p.214.

15) Balsamon, *Canonical Questions*, P.G. 138,978.

16) Gr. Dix, *The Treatise on the Apostolic Tradition of St. Hippolytus*, 2nd ed. London, 1968, p.25.

17) *Vie D'Alexandre L'Acemete*, II.22, P.OR., VI, p.673.

18) Clement of Rome, *Letter to Corinthians*, 21, P.G. 1,257.

19) Ignatius , *Epistula ad Philadelphios*, 4,P.G. 5,825.

20) Fr. Eby, *History and Philisophy of Education*, Englewood Cliffs, 1958, p.602.

21) Eusebius , *Apologetica*, 12.60,P.G.21, 985 and 988.

22) *"Constitutiones Apostolorum"* 8.32, ed.Fr.Funk, Didascalia Apostolorum, p.175.

23) L. Sherril, *The Rise of Christian Education*. N. York, 1944, pp.175,184 and 192.

24) Eusebius, *Historia Ecclesiastica*, VI.29/IV.15, P.G.20,582 and 533. See also Jerome, *Lives of Illustrious Men*, 38, P.N.F., IV, p.371.

25) Eusebius, *Historia Ecclesiastica*, VI.18, F.T.C., XXIX, p.33.

26) Ch. Cruttwell, *A Literary History of Early Christianity*, London, 1893, p.430.

27) A. Voobus, *History of Asciticism in the Christian Orient*, Louvain, 1960, p. 413.

الفصل الثاني

النظريات التربوية عند الآباء

لم يكتب أى من الآباء الأولين كتاباً خاصاً عن النظريات والتساؤلات التربوية ، لكن أفكارهم التربوية متناثرة فى صفحات الأدب المسيحى الغزير ولذلك من الضرورى أن نبحث عن هذه الأفكار والنظريات فى كتابات آباء الكنيسة الأولين ونحللها ونصيغها منهجياً حتى نحصل على صورة كاملة لنظامهم ومنهجهم ونظرياتهم فى التربية .

وفى سعينا لتحقيق ذلك ، سوف نتناول النقاط التالية:

١) الوراثة والبيئة .

٢) النعمة الإلهية .

٣) إمكانية التربية .

٤) هدف التربية الرهبانية .

٥) الحياة النسكية كوسيلة للتربية الرهبانية .

١) الوراثة والبيئة

بكلمة «وراثة» نعنى انتقال بعض العناصر واستمراريتها من جيل لجيل ، وهذا المصطلح لم يكن معروفاً للآباء بل بدلاً منه كانوا يستخدمون كلمة «طبيعة ـ فيزيس *Φυσισ – nature*» للإشارة إلى نفس المعنى والمضمون الذى لكلمة «وراثة» .

أما المصطلح الثانى «البيئة» فواسع للغاية وليس تعريفه بالأمر السهل ،

لكننا نستخدمه هنا فى هذه الدراسة ليدل عل كل ما هو خارج الفرد ، أى الأشخاص الأخرين ، المجتمع ببنيته ومؤسساته ، النباتات ، الحيوانات ، إلخ... ورغم أن الآباء لم يستخدموا هذا المصطلح بمعناه الواسع ، إلا أنهم استخدموا مصطلحات أخرى تشير إلى أجزاء من هذا المصطلح الواسع مثل «التدريب» «الإرشاد» «التربية» «التفاعل الإجتماعى» إلخ... وهم يشيرون إلى البيئة الإجتماعية أكثر مما للبيئة المادية .

وكان آباء الكنيسة على وعى وإدراك تام بأن للوراثة والبيئة دورهما الهام للغاية فى النمو الشخصى لكل فرد ، وبحسب الآباء ، يرث الإنسان الضعفات وايضاً الاستعدادات ، وقد كتب القديس يوحنا الدرجى معلم النفوس الشهير ، معبراً عن هذا الفكر بوضوح فى كتابه «السلم» فيقول:

«إن البعض ـ لا اعرف لماذا ـ هم بالطبيعة ، إن جاز أن أقول ، ميالون إلى ضبط النفس أو الصمت أو النقاوة أو الاتضاع أو الوداعة أو الحزن ، بينما هناك أخرون يغصبون على أنفسهم بأقصى قدرتهم (لإقتناء هذه الفضائل) رغم أن طبيعتهم عينها تقاومهم فى ذلك».[1]

وهذا القول يدهشنا تماماً ، لأنه يشرح بوضوح أن الإنسان يرث الإستعدادات والميول الصالحة ، وهى فكرة نادراً ما نجدها فى أعمال الآباء ، فالأدب الآبائى فى تعليمه عن الخطية ، يؤكد دوماً على الجانب السلبى للوراثة ، أى أننا نرث الضعفات والميول الرديئة والتى تعتبر نتائج لـ «الخطية الأصلية» أو خطية آدم ، أى الاختيار المتعدى والخاطئ الذى صنعه الإنسان الأول آدم ، عندما أكل من الثمرة المحرمة ، وهكذا بعصيانه وتعديه ، حرم من الشركة مع الله وفسدت طبيعته ، وصار هذا الفساد

ينتقل من جيل إلى جيل وساد فى الطبيعة البشرية بجملتها ، النفس والجسد ، ويقول القديس أبو مقار الكبير أن هذا الفساد موجود فى سائر البشر[٢] ويدفعهم نحو الخطية ، وهو يمثل «الناموس الأخر» «ناموس الخطية» الذى فى أعضائنا كما كتب القديس بولس الرسول (رو٧:٢٣) والذى يحارب «ناموس العقل» ، ولذلك الإنسان «مستعد وميال لأن يشترك فى الشر»[٣] أكثر مما فى الخير ، وتختلف درجة هذا الميل الشرير من شخص لأخر ، وطبيعته ليست إجبارية بقدر ما هى تعرض وتقدم ، وقد عبر القديس مقاريوس عن هذا الفكر عندما قال فى إحدى عظاته الشهيرة: «إن طبيعتنا قادرة على قبول الخير والشر ، وقوة الشر تغوى وتعرض ولا تكره أو تجبر».[٤]

كذلك يشرح الأدب الآبائى أن الإنسان حر فى قبول «الشهوات» أو رفضها ، وهذه حقيقة تجعل الإنسان مسئولاً عن أعماله[٥]، وحياة الراهب ليست أكثر من جهاد مستمر ليغلب هذا الميل الشرير ، أما التعليم والتربية الرهبانية فتهدف - من ناحية - إلى وضع هذا الجهاد فى إطار منهجى منظم ، ومن الناحية الأخرى إلى إنماء الميول والاستعدادات الصالحة والتى يرثها الإنسان ايضاً من آبائه وأجداده ، وبعض هذه الاستعدادت هى «الذكاء» و «الفضائل»[٦]، ويقول القديس باسيليوس: «إن الفضائل توجد فينا ايضاً بالطبيعة ، والنفس تنجذب لها ليس بالتربية بل بالطبيعة نفسها».[٧]

ومصطلح «بالطبيعة» هنا إنما هو مرادف لمصطلح «بالميلاد» ، وفى القرن الرابع شرح الأنبا بفنوتيوس بوضوح أن بعض الناس لهم ميول

فكريـة ، بينما هناك أخرون لهم ميول أخلاقيـة[٨] ، لكن الفضائل لا توجد في درجتها العالية المتقدمة ، بل كبذرة وكـ «ميل» و «استعداد» ، ويتضح هذا الفكر ايضاً في كتابات كلمنضس السكندري: «وفوق كل شئ ، يجب أن يعرفوا أننا بالطبيعة نميل إلى الفضيلة ، وليس معنى هذا أننا نملكها بالميلاد ، بل أننا مستعدون ولائقون لكي ننالها» .[٩]

وتعتمد درجة تقدم الإنسان في الفضيلة على التدريب الذي يتلقاه وعلى جهاده الشخصي ، وقد كتب القديس مقاريوس قائلاً: «لقد وضعت النعمة الإلهية تدبيراً يجعل كل أحد يشارك في التقدم والنمو الروحي بحسب رأيه الشخصي وإرادته هو ، وبحسب عمله وجهاده هو» .[١٠]

والإستعدادات الموروثة ، والضعفات والسمات الأخرى الموروثة ايضاً ، هي ما يميز الإنسان عن الأخر ويجعل كل إنسان فريداً ، وقد وضعت قوانين الكنيسة هذه الفرادة في اعتبارها ، عند تحديدها للسن الذي يصير فيه الطفل مسئولاً عن أعماله ، وهكذا نجد البابا تيموثاوس السكندري في إجاباته القانونية *Canonical Answers* يقول أن الطفل يصبح مسئولاً عن أعماله عندما يبلغ نضوجاً معيناً ، عادة نحو سن ١٠ أو ١١ عاماً... فلم يحدد البابا تيموثاوس سناً معينة لأن هذا يتوقف على طبيعة الطفل .[١١]

أما فيما يختص بالبيئة ، فنجد أن العديد من النصوص النسكية توضح أن آباء الكنيسة كانوا ينظرون إلى «البيئة *environment*» كعامل مؤثر وهام في تطور ونمو الشخصية ، ويلاحظ القديس يوحنا الدرجي مندهشاً

ن المعاشرات الإجتماعية ـ والتى هى جزء من بيئة الشخص ـ قوية للغاية لدرجة أنها تؤثر على الإنسان وتسحبه بعيداً عن توجهاته الطبيعية بسرعة نائقة ، ولعل كاتيب «السلم إلى الله» ـ لأسباب تعليمية ـ أكد بشدة على الدور القوى الذى تلعبه البيئة فى تشكيل الشخصية ، ولم يكن يعبر عن الرؤية العامة لهذا الموضوع ، ورغم أن الآباء لم يشرحوا إلى أى مدى تؤثر البيئة على تطور ونمو الإنسان ، إلا إنه يتضح لنا أنهم لم يعتبروه عاملاً فائق القدرة فى تشكيل الشخصية[١٢] ، بل وحتى القديس يوحنا الدرجي نفسه فى موضع أخر من كتابه «السلم» يقول أن الوراثة تشكل الإطار الذى فيه تقدم البيئة تأثيرها وصياغتها للشخصية ، وعلى أية حال ، رأى الآباء أن البيئة الصالحة يمكن أن تكون نافعة للغاية للإنسان ، وأن البيئة الرديئة يمكن أن تكون مدمرة للإنسان ، وفى «الأقوال *Apophthegmata*» نقرأ: «إن من يذهب إلى محل العطور ، حتى ولو لم يشترى شيئاً ، يشترك فى الرائحة العطرة»[١٣].

لذلك أخذ آباء البرية خطوات جادة نحو خلق بيئة ومناخ صالح ونافع فى أديرتهم ، وشجعوا تكوين العلاقات الحميمة بين المبتدئين والرهبان المتقدمين الذين هم «محل عطور» بالنسبة للراهب ، وكان على الرهبان أن يجاهدوا لأجل إقامة مثل هذه العلاقات ، ولأجل أن يتفادوا أى معاشرة مع «الأخوة الكذبة»[١٤].. وهذه البيئة كانت ايضاً نتيجة للبنية العامة للحياة الرهبانية .

٢) النعمة الإلهية

رأى الآباء أن للنمو الإنسانى أبعاد ثلاثة ، الأول هو الوراثة والثانى هو البيئة ، وهذين قد ناقشناهما ، أما البعد الثالث فهو النعمة الإلهية ، وفى اللاهوت المسيحى ، مصطلح «النعمة الإلهية» يعنى محبة الله المجانية كما تُستعلن فى خلاص الخطاة ومنح البركات ، وتعمل النعمة أساساً فى هؤلاء الذين لهم ارتباط عضوى بالكنيسة والذين يجاهدون ليعيشوا بحسب تعاليمها ، لكن النعمة تعمل ايضاً خارج الكنيسة فى هؤلاء الذين غالباً ما يتجاهلونها ولا يبذلون أى جهد لإقتنائها .

وقد اعتبر الآباء أن النعمة الإلهية أهم العوامل التى تؤثر على تطور ونمو الشخص ، بل وبجانب أن لها تأثيرها المباشر على الإنسان ، فهى كذلك تحكم العاملين الأخرين (الوراثة والبيئة) ، وهكذا كان هناك أمور كثيرة رأى الآباء أنها نتيجة وثمرة للنعمة بينما رأى الدارسون والباحثون المحدثون أنها نتيجة لعاملى البيئة والوراثة ، وفى الأدب الآبائى ، نجد وثيقة رهبانية مبكرة للغاية تؤكد بجلاء على أهمية وأولوية النعمة الإلهية ، تلك هى «سيرة القديس باخوميوس *Vita Prima of St. Pachomius*» فنقرأ فيها كلمات تلاميذه المملوءة بالاعجاب والدهشة:

«اعتدنا أن نعتقد أن كل القديسين كانوا بتدبير الله قديسين منذ أن كانوا فى رحم أمهم ولا يمكن أن يتغيروا ، وليسوا قديسين بإرادتهم الحرة وأن الخطاة لا يمكن أن يعيشوا بسيرة صالحة لأنهم خُلقوا هكذا ، لكننا الآن نرى صلاح الله واضحاً فى حالة أبونا هذا إذ وهو من والدين وثنيين

صار خائفاً لله للغاية ، وهو ملتحف بجميع وصايا الرب... فلنمت ولنحيا مع هذا الإنسان لأنه يقودنا بالصواب إلى الله».[١٥]

ونجد هذا القــول عينه ايضاً فى كتاب «الأقوال»... وبحسب الآبـاء ، كانت النعمة الإلهية هى القــوة التى تقود عاملى البيـئة والوراثـة ، وهى التى تعطى الجهود التربوية والتعليمية إمكانية النجاح ، وكانت كلمات السيد المسـيح «بدونى لا تـقدروا أن تفعلوا شـيـئاً» (يو١٥ :٥) دومـاً فى أذهانهم .

ولكى نلخص هذا الفكر الآبائى ، يمكننا أن نقول أن آباء الكنيسة رأوا أن نمو الإنســان وصياغة شخصيـته كان نتيجة لعوامـل ثلاثـة: الوراثة ـ البيئة ـ النعمة الإلهية... ولذلك كتب القديس مقاريوس الكبير قائلاً: «لا يستطيع الإنسان أن يتقدم بالقــوة والنعمة الإلهـية فقط دون تعاونـه وإرادته الحـرة ، وكذلك لا يمكنه بقوته وجهاده فقط ، دون معوة الروح القدس أن يتمم إرادة الله الكاملة ويصل إلى ملء الحرية والنقاوة».[١٦]

ورغم أن النصوص الأبائية لا توضح لنا إلى أى مدى يسهم كل عنصر من هذه العناصر المؤثرة فى نمو الإنسان وشخصيته ، إلا أن الآباء أكدوا بشدة على دور النعمة الإلهية ، واضعين إياها فوق العاملين الأخرين .

والآن عندما نقارن بين تعليم الآبـاء وبين نظريـات العلم الحديث ، نجـد أنـه فى موضـوع الوراثـة والبيـئة ودورهـما التشكيـلى والتكويـنى للشخصـية ، تتفـق أفكار وتعالـيم الآبـاء مع العلم الحديث ، ومن الأراء العلمـية الحديثة المقبولـة فى هـذا الصـدد ، القـول بأن «الشخص ، أى

شخص ، وكل سماته الجسمية والعقلية والثقافية ، هو نتاج تفاعل الطبيعة والتنشئة ، الوراثة والبيئة»[١٧] ، أما بالنسبة للنعمة الإلهية فمن الجلى أن العلماء لا يقبلونها كعامل مؤثر فى صياغة الإنسان وشخصيته .

٣) إمكانية التربية

إن كون الإنسان يتصف منذ ولادته ببعض الميول الطبيعية الرديئة والصالحة ، من ناحية ، وإمكانية تغييره وتطويره عن طريق بيئته وإتصالاته مع الأخرين ، من ناحية أخرى ، يؤكدان على إمكانية التربية وايضاً على ضرورتها ، ويسلم الأدب الأبائي بأن للتربية تأثيرها الكبير على شخصية الإنسان ، ويقول كلمنضس السكندرى أن التربية السليمة تقود إلى السماء ، وكتاب «الأقوال» يذكر أن الكلمة الصالحة لها من القوة ما يجعل من الشرير باراً ، والكلمة الشريرة تستطيع أن تجعل البار شريراً[١٨] ، كذلك كان آباء البرية يؤمنون أن التربية تعنى بالجسد وايضاً بالنفس كليهما ، وأن لها تأثيرها القوى على الحياة بجملتها ، ويؤكد أبو مقار الكبير أن بالتدريب السليم ، يمكننا أن نقتنى الفضيلة ، ويقول القديس يوحنا الدرجى أنه بالتدريب الحسن يمكننا أن نحد حتى من احتياجاتنا الطبيعية ، مثل الأكل والنوم إلخ[١٩] ... لكن الآباء ينبهون إلى أن مهمة التربية صعبة للغاية ، وأنها تتطلب وقتاً ولابد أن تتم بصبر وبالتدريج وبرفق.[٢٠]

وفى تناولهم لموضوع السن ، رأى الآباء أن التربية تأتى بنتائج أفضل عندما تتم فى السنوات الأولى من حياة الطفل ، إذ أن كل ما يطبع على

النفس فى تلك المرحلة المبكرة ، عندما يكون من السهل تشكيل النفس وتكون لينة وطيعة مثل الشمع ، يصبح من الصعب محوه فيما بعد .

وهكذا يجب أن تبدأ تربية الشخص فى سن مبكر ، عندما ـ كما يقول القديس باسيليوس ـ تكون طبيعة الطفل طيعة للغاية وسهلة التشكيل[٢١] ، ويردد القديس يوحنا الدرجى نفس هذا التعليم ويذكر أن التربية التى تلقاها وهو طفل كان لها تأثير حاسم ، سواء إيجابى أو سلبى ، على نموه فى الحياة الرهبانية[٢٢] ، واخيراً فى كتابه «عن المجد الباطل والطريقة الصحيحة للوالدين لتربية أطفالهم» يتناول فم الذهب نفس هذا الموضوع موضحاً السبب الذى يجعل السنوات الأولى أكثر أهمية من أى سن أخر ، فيقول أنه فى ذلك السن تكون «النفس رقيقة» وعندما يُطبع التعليم الصالح على مثل هذه النفس ، لا يستطيع أحد أن يمحوه ، إذ من الصعب محوه ، تماماً كما أنه من الصعب محو الأختام ، وبالمثل السنوات الأولى فى حياة المبتدئ فى الرهبنة أساسية جداً لأجل نموه فيما بعد ، وهكذا كان يُنظر إلى فترة البداية فى النذر الرهبانى كمرحلة حاسمة ، ولذلك لابد أن تُعطى إهتماماً فائقاً من الأب ومن التلميذ .

٤) هدف التربية الرهبانية

من الأهمية بمكان أن نميز بوضوح بين هدف التربية الرهبانية وبين هدف الرهبنة ، ويُمكن أن نفهم الأول أفضل عندما نفهم الثانى .

هدف أو غاية الرهبنة هو نفس هدف المسيحية ، ذلك أن تُشكل فى

الناس شخصيات مسيحية ليكونوا لائقين ومستعدين لدخول ملكوت السموات ، وللرهبنة وسائلها لبلوغ هذه الغاية ، وبالرغم من أن آباء البرية شرحوا أهدافهم بطرق مختلفة ، إلا أنه فى التحليل النهائى لأهداف وغايات كل من الرهبنة والمسيحية ، نجد أنها أهداف متماثلة .

فبالنسبة للنساك الأولين ، كانت الغاية النهائية من نذرهم وتكريسهم هى إستعادة حالة آدم قبل السقوط(٢٣) ، وفى سيرة العظيم الأنبا أنطونيوس بقلم البابا أثناسيوس نقرأ أن القديس أنطونيوس أمر الحيوانات ألا تزعج سلامه أو تفسد حديقته ، وهكذا ترسم أمامنا صورة للعلاقة بين أنطونيوس الكبير والحيوانات ، والتى تدل على إستعادته لحالة آدم قبل السقوط .

كذلك شرح آباء أخرون أن غاية الرهبنة هى الوصول إلى حالة الهيزيخيا *Hyschia* أى السكينة ، أو إلى حالة الأباثيا(٢٤) والتى تعنى اللاهوى أى ضبط الإنسان الكامل لشهواته وأهوائه ، وإذا بلغ الراهب حالة الأباثيا *Apatheia*، يمكنه أن يكرس نفسه لحياة الثيؤريا *Theoria* أى التأمل .

وبالإضافة إلى هذا وذاك ، علّم بعض الآباء أن هدف الحياة الرهبانية هو أن ينال الراهب عطايا الروح القدس ، وهذا الرأى ردده القديس سيرافيم ساروفسكى الناسك الروسى فى القرن التاسع عشر .

وبجانب ذلك ، كان آباء البرية يؤمنون أن هدف التربية الرهبانية هو أن تساعد المبتدئ على الوصول لأهدافه بأقصى سرعة ممكنة ، ولذلك استخدموا كل الطرق والوسائل المناسبة المتاحة لهم فى سعيهم لمساعدة

تلاميذهم فى مهمتهم الصعبة .

وسوف نناقش بدقة أكثر ـ فى فصل أخر ـ المناهج والطرق العديدة التى استخدموها ، أما الآن فسوف نتناول أهم هذه الوسائل وهو «النسك *Ascesis*» من زاوية نظرية .

٥) الحياة النسكية كوسيلة للتربية الرهبانية

إن تعبير «الحياة النسكية *ascetical life*» يعنى المنهج النسكى فى الحياة والذى يتضمن ضبط النفس فى الأكل ، السهر ، الصمت ، عدم الراحة ، الطاعة ، التلمذة ، إلخ... وأساس هذه الحياة النسكية متأصل فى العهدين القديم والجديد ، وتظهر عناصر الحياة النسكية فى كتابات الأباء الرسوليين بالترتيب التالى:

١) تحديد أيام معينة للصوم .
٢) تحديد ساعات معينة للصلاة .[٢٥]
٣) عدم الزواج ، وخاصة الزيجة الثانية.[٢٦]
٤) جحد العالم ، أى العالم المادى .

وفى المصادر الرهبانية الأولى ، تتماثل الحياة الرهبانية كثيراً مع «النسك» الذى يعنى «تدريب ممارسة ـ تمرين ، إلخ..» ويستخدم هذا المصطلح فى النصوص الأبائية للدلالة على الحياة الرهبانية والنسكية وممارستها[٢٧] ، ويدعى الرهبان «نساك» أى هؤلاء الذين تركوا العالم وعاشوا فى عفة وبتولية وحياة فقر زاهدة[٢٨] ، وقد كانت هذه الكلمة تستخدم فى الأدب اليونانى عادة للإشارة إلى «الإنسان الذى يتدرب أو

يمارس إحدى الفنون» والراهب بحسب تعريف القديس يوحنا الدرجى هو «ذاك الذى فى جسده الترابى يجاهد ليبلغ رتبة وحالة الكيانات غير الجسدانية ، الراهب هو ذاك الذى يضبط طبيعته تماماً ويلاحظ حواسه على الدوام... الراهب هو نفس حزينة مشغولة فى نومها ويقظتها بغير إنقطاع بذكر الموت».(٢٩)

وهذا التعريف يردد بوضوح صدى أفكار النساك الأوائل ، كما عبر عنها أنبا زكريا حينما قال أن الراهب هو الذى يغصب نفسه فى كل شئ(٣٠) ، وهكذا يمكننا أن نرى كيف كان للنسك دوراً أساسياً وجوهرياً فى الحياة الرهبانية .

وكانت أتعاب الجسد وجهاداته هى الثمن الذى يدفعه الراهب لأجل نوال عطايا الروح القدس ، ولذلك توضح «الأقوال» : «اعط دماً وخذ روحاً»(٣١) فهذه الأتعاب هى وسائل نوال الفضيلة ، أو بالأحرى هى وسيلة للبلوغ إلى هدف الرهبنة ، لأنها تنقى القلب والذهن وتجذب النعمة الإلهية.(٣٢)

لكن الحياة النسكية لم تكن قط هدفاً فى ذاتها ، فالنسك ببساطة هو مساهمة من الجسد فى جهاد النفس وسعيها لبلوغ غايتها وهدفها ، كما شرحه القديس إيسيذروس الفرمى* فى إحدى رسائله ، وإذ كان بعض الرهبان يتخذون من النسك هدفاً فى ذاته ، كان الأدب النسكى يحذرهم دوماً موضحاً أن قيمة النسك نسبية فقط(٣٣) ، وعلى سبيل المثال ،

---

*انظر كتابنا «إيسيذروس الفرمى» سلسلة آباء الكنيسة ـ اخثوس ΙΧΘΥΣ .

عندما وجد الأنبا ثيؤدوروس أحد الأخوة يتفاخر فى المجمع بأصوامه الشديدة قال له: «خير لك أن تأكل لحماً فى قلايتك ، من أن تتفاخر هكذا وسط الأخوة» .

ويميز الأدب الرهبانى بوضوح بين النسك الإلهى والنسك الشيطانى ، فالأول يتصف بالتعقل والاعتدال ، بينما الثانى نسك بلا تفكير ولا تعقل ومغالى فيه ، ولذلك لا يقود إلى نقاوة القلب بل إلى الذاتية الشيطانية ، وكان القانون الذهبى للرهبان أن يتحاشوا كل التطرفات المغالى فيها(٣٤)، فمن الضرورى أن يتلازم النسك مع التمييز والإفراز الذى يسميه نيلوس «مصدر وأصل ورأس كل فضيلة» والذى يسميه صفرونيوس الأورشليمى (تنيح عام ٦٣٨م) «ملكة الفضائل» ، إذ أن هدف النسك هو إماتة الأهواء الشهوات وليس قتل الجسد ، كما قال الأنبا بيمن ذات مرة للأنبا اسحق «لقد تعلمنا ألا نكون قتلة للجسد بل قتلة للشهوات».(٣٥)

وعلى أية حال ، كانت المزية الكبرى للحياة النسكية أنها تسمح للراهب أن يحيا فى شركة دائمة غير منقطعة مع الله وذلك بتكريس دائم مستمر لحياة الصلاة .

ولابد أن نوضح أن العقل الرهبانى ، بخلاف فكر الغنوصيين أو المانيين ، لم يعتبر قط المادة شراً فى ذاتها ، لأن الله هو خالق كل الأشياء ، والثنائية اليونانية «الخير ـ الشر» لم تصر قط إيماناً فى المسيحية الأرثوذكسية ، فليس هناك شئ ردئ ، لأن الله لم يكن ليخلق شراً(٣٦) ، لذلك يجب ألا يترك الإنسان المقتنيات لأنها ببساطة شر فى ذاتها ، بل يجب أن يوزعها بتعقل وبلياقة لأنها يمكن أن تكون أدوات للخطية .

كذلك لـم يرفـض الرهبان إمكانيـة الخـلاص خـارج إطـار النسـك الرهبـانى ، وكثيراً ما كانت الملائكة تتراءى للرهبان لتخبرهم أن بالرغم من أنهم يعيشون حياة نسكية لسنوات طويلة فى البرية ، إلا أنهم لم يبلغوا بعد القامـة الروحية التى لبعـض المـؤمنـين العاديـين الذين يعيـشـون فى العـالم .(٣٧)

لقد كان النسك تربية جسدية سلبية ، تهدف إلى إضعاف الجسد الفاسد بالخطية وتنقيته وإعداده للقيامة ، وكان الرهبان يؤمنون أنه «بقدر ما يضعف الجسد ، بقدر ما تزهر النفس» .

ومن الناحية الأخرى ، أكد القديس باسيليوس أن الراهب يجب أن يحتفظ بجسده فى حالة صحية جيدة وإلا لن تستطيع النفس أن تعاين الإلهى .

وهكذا... رغـم أن أحـداً من آبـاء البريـة لم يفـرد كتاباً خاصـاً عن التربيـة ، إلا أنه من البين أنهم كـانوا واعيين تماماً بالمفـاهيم التربوية ، وكـان لهم أفكارهم ورؤيتهم الخاصة لها ، وهذه الأراء والأفكار تتمـاثل فى مناح عديدة مع أرائنا وأفكارنا ، وعلى أية حال ، قدموا عاملاً جديداً فى تشكيل الشخصية الإنسانية ألا وهو النعمة الإلهية .

المراجع

1) John Climacus, *The Ladder of Divine Ascent*, tr. Moore, London, 1959, p.206.

2) Macarius the Egyptian, *Homily LXXV*, V.H.P., XLII, 93.

3) Gregory of Nazianzus, *Oration II*,2, P.N.F. VII, 207.

4) Macarius The Egyptian, *Homily XXVII*, 10, V.H.P. XLI, 286.

5) John Climacus, *Ladder*. XXV, p. 188, See also Macarius the Egyptian, *Homily XV*, V.H.P., XLI, 230, and Irenaeus, *Against Heretics*, XXXVIII. A.N.F., I, 519.

6) Palladius, *Historia Lausiaca*, XCV, P.G.34,1201. John Climacus, Ladder, XXV, p.180.

7) Basil, Hexaemeron, *Homily IX*. 4, N.P.F., VIII, 103.

8) Macarius the Egyptian, *Homily LIV*,V.H.P. XLII, 42.

9) Clement of Alexandria, *Stromata*, VI,11 and 12, V.H.P., VIII, p.213-4.

10) Macarius the Egyptian, *Letter*, V.H.P., XLII, p.146.

11) G. Ralles, *Syntagma Hieron Kanonon*, Athens,1825-1859,IV, p.341.

12) John Climacus, *Ladder*, XXVIII, p.189 and 206.

13) *Apophthegmata*, V.H.P., XLII, 256.

14) Ibid. P.G.LXV, 77, 116, 361.

15) *Vita Parima Pachomii*, quote., in Chitty's *The Desert A City*, Oxford, 1966, p.21.

16) Macarius the Egyptian, *Lettre*, V.H.P., XLII, p.146.

17) Dobzhansky, Th., *Heredity and Nature of Man*, New York, 1964, p.4.

18) *Apophthegmata*, P.G.65, 281.

19) Clement of Alexandria, *Instructor*, I, 12, A.N.F., II, 235. See also: Macarius the Egyptian, *Ascetic Homily*, V.H.P., XLII, p.188, and John Climacus, *Klimax*, 11, p.78.

20) Varsanuphius and John, *Question* XIII, P.OR. XXXI, Fsc 3, 469.

21) Basil, *Reg. Fus.*, XV, P.G. 31, 956A .

22) John Climacus, *Klimax*, XXVI, Athens, 1970, p.148.

23) Chrysostom, *Homilia*, LXVIII, 3, in Mt., P.G. 58, 643 D.

24) Diadochus of Photices, (451 A.D.), *On Spiritual Perfection*, 54. See also: Palladius, *Historia Lausiaca*. P.G. 34, 1003.

25) *Didache* VIII, V.H.P., II, p.217-18.

26) Ignatius, *Letter To Polycarpus*. II, ed. K. Bihlmeyer, Die Apostolischen Vater, Tubingen, 1924, p.112.

27) Basil, *Constitutions*, P.G. 31,1388A .

28) Athanasius, *Vita Antonii*, P.G. 26,632A, and 889A.

29) John Climacus, *Ladder* I, p.50.

30) *Apophthegmata*, V.H.P.XLII, 269.

31) Ibid., P.G.65, 257.

32) Ammonas, *Peri Psyches*, V.H.P., XL, 272 and 4th Letter, V.H.P., XL. p.54.

33) *Apophthegmata*, P.G.65, 204A.

34) Ibid., 425C.

35) Ibid., 368A .

36) Basil, *Reg. Brev*., 92, P.G. 31, 1145C. *Reg. Fus*. P.G.31, 965B.

37) *Apophthegmata*, P.G.65,168 and 156.



الفصل الثالث

الأب والتلميذ

تبرز في الرهبنة المبكرة والحديثة ايضاً رتباتان رهبانيتان أساسياتان هما:

الأب *Elder*

والتلميذ *Disciple*

وتظهران كرتبتين هيرارخيتين في الأدب الرهباني المبكر وفي التقليد الرهباني ، فالآباء جميعهم لابد أن يبدأوا من رتبة التلميذ ويتدرجوا حتى يبلغوا درجة الأب ، وهذا الانتقال يستغرق زمناً ليس بالقليل ، وتقدم لنا اللغة اليونانية العديد من المصطلحات التي تصف رتبة الأب ورتبة التلميذ ودور كل منهما ، وكل من هذه المصطلحات يعكس مفهوماً لهاتين الدرجتين في الفترة التي ظهر فيها المصطلح ، فمثلاً: اللقبان «شيخ *Geron*» و«أب *Pater*» كانا يستخدما لوصف الأب في الفترات المبكرة جداً ، وقد ورد أولهما «شيخ *Geron*» مرات عديدة في كتاب «الأقوال» وفي كتابات القديس إيفاجريوس البنطي الملقب بمارأغريس* ، ويستخدم هـذا المصطلح للتعبيـر عن حكمة ونضـج الأب أكثر مما للتعبير عن سـنه وتقدمه في الأيام ، أما المصطلح الأخر «أب *Pater*» فكان يستخدم للدلالة على محبته الأبوية ، واهتمامه بتلميذه الذي هو ابنه الروحي .

بالإضافـة إلى ذلك ، استـخدم الأدب الرهباني كلمتي «هيغومينـوس *Hegoumenous*» و«آبـاس *Abbas*» وهذه الثانية كلمـة سريانية من

* انظر كتابنا «إيفاجريوس البنطي» ضمن سلسلة آباء الكنيسة ـ اختوس ΙΧΘΥΣ.

أصل سامى كانت تتداول فى الأوساط الرهبانية بمعنى «أب روحى» حتى عام ٣٣٠م كما يتضح من ورودها الكثير فى شكلها القبطى فى مراسلات عديدة[١] ، وهى ترد مراراً فى العديد من المصادر الرهبانية المبكرة ولا تزال مستخدمة حتى الآن كما هو الحال مع جميع المصطلحات التى أسلفناها[٢] .

والمصطلح الآخر «هيغومينوس *Hegoumenous*» يعنى «رئيس دير» ، وقد بدأ استخدامه عندما تحولت الرهبنة من طابع الوحدة إلى حياة الشركة ، وقد استخدم باخوميوس هذا المصطلح فى قانونه[٣] ، وايضاً نيلوس الناسك ويوحنا الدرجى وأخرون كثيرون .

وبينما كان مصطلح «رئيس» يُطلق فقط على رئيس الشركة الرهبانية ، كان مصطلح «أب» يطلق على أى ناسك له تلميذ أو أكثر تحت إرشاده ، أو على الرهبان الموقرين بسبب فضائلهم وجهاداتهم ، أما عن لقب «آباس *Abbas*» فكان يعطى فقط للرهبان المتميزين الذين بتعاليمهم وسيرهم صاروا معلمين للرهبنة كلها ، ومن الجدير بالذكر أن الفصول الأولى من سيرة الأنبا باخوميوس لا تستخدم لقب «آباس» فى الإشارة إليه لأنه كان يعتبر صغيراً جداً .

واخيراً ، كان هناك مصطلحان آخران يستخدمان فى الإشارة إلى رئيس الشركة[٤] ، أحدهما هو «أرشمندريت *Archimandrite*» ويعنى «أن ترأس قطيع» كما كانت الأديرة تُسمى فى سوريا والميصة ، وهذا يدل على أن هذا اللقب قد خرج فى الغالب من سوريا ، وقد ورد مرتين فى التاريخ اللوزياكى لبالاديوس ، كما ورد فى كتابات باسيليوس وفى كتاب

«خـزانـة الدواء أو البناريون *Panarion*» للقديس إبيفانيوس أسقف سلاميس وفى نصوص أخرى قديمة ، وفى بعض الأحيان ، كان الأرشمندريت رئيساً لمجموعة من الأديرة ، وذلك بصفة خاصة فى فلسطين [٥] .

أما المصطلح الثانى فهو «برويستوس *Proestos*» ويعنى «أن تكون رأساً لـ.... » وصار يستخدم بمعنى رئيس دير [٦] .

نأتي الآن إلى التلميذ ، فنجد أن مصطلح «أركاريوس *Archarios*» كان يطلق عليه وهو يعنى «مبتدئ» وفيما بعد عندما تأسست حياة الشركة وكان ينظر إلى فضيلة الطاعة كأهم فضيلة لازمة للراهب ، خاصة المبتدئ ، بدأ استخدام لقب «هيبوتاكتيكوس *Hypotaktikos*» والذى يعنى «الشخص الذى يطيع» أو «تحت الطاعة» للدلالة على أن عمل التلميذ الأول هو أن يطيع أباه الروحى ، واخيراً كان مصطلح «ماثيتيس *Mathetes*» والذى يعنى «الشخص الذى يتعلم» أو «تلميذ» يستخدم هو الآخر بإتساع [٧] .

والألقاب القبطية الرهبانية للأب هى: «هيللو *Hello*» وتعنى «شيخ» ولقب «ناج *Nag*» ويعنى «عظيم» وبدلاً من كلمة «أباس» استخدم لقب «آبا» .

والإصطلاحات السريانية نافعة ايضاً ، فالمصطلح السريانى لكلمة هيغومينوس هو «ميشاب لاڤا *meshab lava*» ويعنى «قائد» وكلمة «ريش ديرا *resh daira*» وتعنى «رئيس دير أو أرشمندريت» .

والمبتدئ يُسمى «تلميذا *Talmida*» أى «تلميذ أو شخص يتعلم» والرهبان بصفة عامة يدعون «ديرارا *dairara*» أى «ساكن دير» .

وفى هذا الفصل سندرس أولاً مكانة الأب فى الرهبنة ودوره ومقوماتـه ثم سنتناول التلميذ وشخصيته والدوافع وراء خروجه إلى البرية وحاجته إلى الأب واخيراً فرادته الشخصية.

١) الأب (المعلم)

دلالة ودور الأب

لقد ادرك الرواد الأوائل للرهبنة مثل الأنبا أنطونيوس والأنبا باخوميوس وغيرهم ، حاجتهم إلى مرشد روحى ، إذ عرفوا مدى صعوبة حياة الراهب وأنه من المستحيل تقريباً أن يتعلم المرء هذه الحياة بدون إرشاد أب معلم ، ومن هناك أكد التقليد والأدب الرهبانى بقوة عظيمة على ضرورة أن يكون للإنسان أب مرشد ، والقديس مقاريوس الكبير يقول فى إحدى عظاته أن تلاميذ ملكوت السموات يحتاجون دومـاً إلى مرشـد(٨) ، وإلا سيكون تعبهم باطـلاً ، ومن الأمـثال الرهبـانية الشهـيرة ، ذلك المثـل الذى سجله لنـا بالاديوس والقائل «الذين بلا مرشد يسقطون كأوراق الشجر» ، كذلك القديس يوحنا كاسيان ، والذى يعكس أفكار آباء برارى مصر ، يقول أنه من الحماقة أن يظن الإنسان أنه ليس من الضرورى أن يكون له معلم فى جهاده ونذره الروحى لأن كل مهنة فى العالم تحتاج إلى معلم ، والقديس يوحنا الدرجى المشهور بتشبيهاته يكتب بحرارة فى سلمه قائلاً: «نحن الراغبين فى الخروج من مصر هرباً من وجه فرعون نحتاج حتماً

إلى موسى آخر يتوسط لنا عند الله فيقف بين العمل والتأمل ويرفع يديه من أجلنا إلى أن نعبر بإرشاده بحر خطايانا ونهزم عماليق أهوائنا ، فالذين يتكلون على أنفسهم ويتوهمون أنهم لا يحتاجون إلى مرشد يرشدهم هم مخدوعون» .[٩]

وليس فقط المبتدئون بل وايضاً الرهبان المختبرون ، كان عليهم أن يطيعوا ويخضعوا للإرشاد ، وألا يعطوا هم القوانين لأنفسهم ، فالأب ـ والمعتبر أداة في يد الله ـ هو الوسيلة الوحيدة التى بها يمكن أن يبلغ الإنسان إلى درجة السكينة (الهيزيخيا) والتى هى مرحلة متقدمة للغاية فى الحياة الروحية .

وبثقة التلميذ فى أبوه الروحى يجد السلام فى طاعة قوانينه[١٠]، ولا يمكن الإستعاضة عن الأب الروحى بالكتب لأن دوره ليس فقط أن يلقى عظات ، بل أن يعرف ويحلل الأفكار والأعمال الباطنية التى يفكر فيها التلميذ أو يفعلها ، وكذلك يدبر حياة التلميذ بالطريقة التى يراها مثلى ، ومن الواضح أن هذا العمل الهام جل صعب وملئ بالمسئولية ، وكما يلاحظ القديس اغريغوريوس التزينزى ، هذا العمل أصعب من مجرد أن يتعلم الإنسان كيف يخضع نفسه لقانون[١١]، وقد شرح القديس نيلوس سبب ذلك فذكر أن هذه الصعوبة تنتج من «تنوع العادات الإنسانية» ومن «خداع أفكارنا» وكذلك برصنوفيوس (من القرن السادس) فى إحدى رسائله الموجهة لتلميذه يوحنا يصف دور الأب موضحاً مدى صعوبته وتعبه .

اختياره

فى المرحلة الأولى من رهبنة الوحدة ،كان الراهب يُعطى لقب وسلطان الأب بحسب تقدمه فى حياته الروحية ، أما فى رهبنة الشركة الأولى ، فعندما كانت تحين لحظة نياح رؤساء الأديرة ، كانوا فى العادة يقترحون أو يعينون خلفائهم ، كما يتضح من سيرة الأنبا باخوميوس ، أما فى «المؤسسات» للقديس يوحنا كاسيان[١٢] ، وفى فترة لاحقة ، نجد أن رئيس الدير ـ والذى كانت له مكانة معادلة لمكانة الأب ـ كان يُنتخب من قبل الإخوة الكبار فى المجمع وايضاً يختاره الآباء الروحيون من الأديرة الأخرى ، كما يوصى بذلك القديس باسيليوس مشرع الرهبنة الشرقية ، وكان رئيس الدير «أباً روحياً» للشركة وعلى عاتقه تقع المسئولية ليس فقط عن المتاعب الروحية بل وايضاً المادية مثل التمويل والتنظيم والإدارة ، وتستمر رئاسته مدى الحياة ، هذا إلى جانب أن أخاً ثانياً كان يُنتخب نائباً عنه ليحل محله إذا كان مريضاً أو غائباً .

وإذا حدث وأخطأ رئيس الدير ، ينصحه الأخوة الكبار فى الدير ويعالجونه ، وأى خطأ صغير يقع فيه الرئيس لا يُعطى للأخوة حق تغييره ، لكن إذا سقط فى هرطقة أو بدعة ، كانوا يعزلونه بحسب القانون السابع لمجمع أفسس عام ٤٣١م ، والذى يأمر بأن الأساقفة والاكليروس يجب أن يُعزلوا من مناصبهم إذا قبلوا إيماناً مختلفاً.[١٣]

مقوماته

لما كان تأثير الأب على التلميذ حاسماً ، لذلك يقدم لنا الأدب النسكى وصفاً دقيقاً لما يجب أن يكون عليه الأب ، وأول مقوماته هى أن

يكون مفعماً بالحب تجاه تلاميذه لدرجة أن يكون مستعداً ومشتاقاً أن يحرق ويسحق لأجلهم(١٤)، ويجب كذلك أن يكون تواقاً إلى العمل بإجتهاد عظيم كـ «أب رحيم» وكوصى صالح على منفعة التلاميذ الذين يعتبرهم «أبناء الملك» أى أبناء الله ، وفى الوقت عينه لابد أن يتمتع الأب بمعرفة عميقة ، نظرية واختبارية فى كل ما يخص الأمور الروحية(١٥)، ولذلك كان من اللازم أن يكون للأب خبرة وممارسة عملية فى مجال خدمته هذه ، وهى المتطلبات الأساسية فى أى معلم .

فمجرد معرفة عوائد وممارسات الحياة النسكية أى متى وكيف نصلى ، نظام الطعام ، إلخ ، لم تكن بالتأكيد كافية لأن يصير الراهب أباً مرشداً ، وكان مطلوباً منه باستمرار أن يعمل ذهنه وأن يدرس بنفسه ويتأمل ، ولا يضطلع بأى مسئولية تربوية قبل أن يجد فى نفسه الاستعداد اللائق لحل المشاكل والأتعاب التى تواجه الرهبان فى حياتهم النسكية (١٦)، لأن الجهل خطأ لا يغتفر للمربى إذ يقول الدرجى «من يفعل عن جهل ما يستوجب العقاب ، سوف يعاقب على عدم إقباله على المعرفة (أى لأنه لم يتعلم)».(١٧)

وبالتالى ، كان على الأب أن يحصل على خبرة طويلة فى البرية ويعرف أسرارها ، وايضاً يجب أن يقتنى بقداسته مواهب نعموية تعينه على إرشاد المبتدئين بل وحتى الرهبان المختبرين ـ الذين لم يبلغوا بعد كمال الحياة الرهبانية ـ كيف يجتازون الصعاب والمتاعب التى تعترضهم .

وكى يقتنى الراهب هذه المقومات التى ذكرناها ، حتى يستطيع أن يقوم بتعليم وقيادة الأخرين ، يجب أن يكون متقدماً فى الأيام شيخاً ،

ويكون قد تمرس فى معترك الحياة النسكية عشـرات السنين ، وفى سـيرة أنبا باخوميوس نقرأ قصة توضح الرأى الرهبانى المبكر فيـما يخص سن المعلم ، فقد حدث أنه بينما اجتمع جميع رهبان دير أنبا باخوميوس كعادتهم ليستمعوا لعظته ، طلب باخوميوس من أحد الرهبان ويدعى تادرس ـ والذى صار خليفته فيما بعد ـ أن يعظ الأخوة ، وعندما سمع بعض الأخوة الكبار ذلك قرروا أن يغادروا المجمع قائلين فى أنفسهم «لأنه مبتدئ ويعلمنا لن نستمع له»(١٨) لكن نفس هذه القصة عينها تخبرنا أن تادرس كان يعيش فى الدير منذ عشرين عاماً ، ومع ذلك كانوا لا يزالوا ينظرون إليه كمبتدئ بعد عشرين عاماً فى الحياة الرهبانية!!

والعناصر المذكورة عاليه تمثل الخلفية والسمات والمقومات الواجب توافرها فى الأب المرشد ، فلابد أن يكون رقيقاً ، صبوراً ، محتملاً لضعفات وأخطاء الأخرين ، ولا يليق بالأب أبداً أن يغضب لأن مثل هذا الراعى «يزعج ويهلك النفوس العاقلة»(١٩) بحسب قـول القديـس يوحنا الدرجى ، وبرصنوفيوس يتساءل «إذا كنت أنا لك أباً ومعلماً ، فلماذا أكون ايضاً غضوباً؟». (٢٠)

كذلك يجب أن يكون الأب رؤوفاً ولا يمتحن كل موقف بسيط وإلا فلن يكون مقتدياً بالله ، وبجانب ذلك ، لابد أن يكون الأب أيقونة حية لكل الفضائل كما يطلب منه القديس نيلوس الناسك ، فيجب أن يعلّم بحياته الفاضلة وليس بكلماته ، وبصفة خاصة لابد أن يكون قدوة لتلاميذه فى الاتضاع التام ، ولا يكون قط أنانياً أو ساخراً .(٢١)

ويجب ألا تصدر التوبيخات والتأديبات عن رغبة خفية فى السيطرة

على تلاميذه لأجل أغراضه وأهدافه هو الشخصية ، بل بدافع اهتمامه بهم وبمنفعتهم ، وسلطاته الأوتوقراطية المطلقة يجب ألا تجعل منه شخصاً مستبداً ، ولذلك يقول القديس باسيليوس «يجب ألا يرتفع الرئيس بمنصبه العالى لئلا يفشل فى نوال البركة التى وعد بها المتضع ، ولا يرتفع بكبريائه لئلا يسقط فى دينونة الشيطان».(٢٢)

ويقدم لنا التقليد الرهبانى مثالاً رائعاً لرئيس الدير المتضع فى شخص القديس باخوميوس الذى اعتاد أن يقول: «تماماً كما أن الميت لا يقول (شيئاً) للموتى الآخرين ، كذلك أنا قائدكم لم اعتبر نفسى قط أباً للأخوة ، بل (اعتبر) أن الله وحده هو نفسه (أبوهم)».(٢٣)

وإذ وضع آباء البرية فى أذهانهم الصعوبات السالفة الذكر الخاصة بالعمل التربوى والمقومات والسمات الشخصية المتطلبة فيه من ناحية ، ومن الناحية الأخرى حقيقة أن الأب سيعطى حساباً أمام الله عن كل واحد من تلاميذه ، رفضوا بشدة وتصميم أن يقبلوا القيام بدور الأب ، واعتبروا أنفسهم غير قادرين ولا مستحقين بدرجة كافية لتتميم مثل هذا العمل الهام ، وأفضل مثال على ذلك هو الإجابة التى قالها أحد الرهبان عندما طلب منه أن يتولى رئاسة الدير: «اغفروا لى يا أبائى لكى أحزن على خطاياى ، لأنى لست شخصاً مناسباً لاهتم بالنفوس فهذا العمل للآباء العظام أمثال الأنبا أنطونيوس»(٢٤) وكتب برصنوفيوس ايضاً: «لا أريد أن أصير رئيساً على أحد ولا معلماً لأحد ، اغفروا لى يا أخوتى وصلوا لأجلى».(٢٥)

وهكذا كان من المفترض أن «الكاملين» فقط هم الذين يصيرون

معلمين للصغار ، ولم يكن أحد يعتبر نفسه راهباً كاملاً ، ويروى لنا ايضاً هذا التقليد النسكى أن بعض رؤساء الأديرة تركوا أديرتهم سراً ومضوا إلى أديرة أخرى دون أن يكشفوا عن هويتهم الحقيقية وطلبوا أن يقبلوا كرهبان مبتدئين ، ولم يكن دافعهم وراء ذلك مجرد رغبتهم القوية فى أن يعيشوا حياة الإتضاع ، بل وايضاً المسئولية الجسيمة التى شعروا بها أمام الله عن كل واحد من تلاميذهم ، وهكذا نجد باسيليوس الكبير ، وهو يعكس فكر رهبنة القرن الرابع فى هذا المنحى ، يخط فى أحد قوانينه: «ذاك الذى أُوكلت إليه مسئولية الجميع لابد أن يتذكر أنه سيُعطى حساباً عن كل أحد ، فإذا سقط أحد الإخوة فى خطية ، ولم يخبره الرئيس بدينونة الله ، أو إذا أصر على خطئه ولم يعلمه الرئيس طريق التوبة والتكفير عن هذه الخطية ، فسوف يطلب دمه منه (من الرئيس)».(٢٦)

ومن هنا كان جهاد الأب مزدوجاً :

ليخلص نفسه هو

وايضاً ليخلص نفوس تلاميذه .

واخيراً ، من الجدير بالذكر أن آباء البرية كانوا يُدعون «معلمين ومربين» كما يتضح من تكرار هذين اللقبين فى «الأقوال» وفى سيرة القديس ألكسندروس التى تروى أنه «صار مربياً ومعلماً لكل أحد»(٢٧)، وهذه الإشارات جميعها تثبت أن هؤلاء الآباء كانوا واعيين بدورهم كمربيين وأن معاصريهم ايضاً ادركوا أنهم مربيون ، وسوف نتناول نظرياتهم التربوية ومنهجهم فى تطبيقها فى فصل أخر .

٢) التلميذ

منْ هو؟ ولماذا ترك العالم؟

لقد كان هؤلاء الذين خرجوا من مدنهم ودخلوا البرية مسيحيين غيورين من سائر الطبقات الإجتماعية ، كانوا رجالاً ونساءً من جميع الأعمار ومن كل مستويات التعليم ، وبالنظر إلى الدوافع وراء تركهم العالم وخروجهم للبرية ، نجد أن أول هذه الدوافع هو اشتياقهم العميق والقوى لأن يلتقوا مع الله الذى قاد خطواتهم إلى البرية .

أما النساك اليونان أو الذين كانت لهم رؤية يونانية للحياة ، فقد عبّروا عن سبب خروجهم للبرية بطريقة أكثر عمقاً وبلاغة إذ قالوا أنهم يسعون للبلوغ إلى حالة الثيؤريا *Theoria* أى التأمل كما يشرح القديس إيفاجريوس البنطى فى عمله عن الصلاة وفى أعماله الأخرى ، ونفس هذا المصطلح «ثيؤريا» يستخدم فى «الأقوال» فى سيرة الأنبا أرسانيوس: «عندما كان الأنبا أرسانيوس فى القصر صلى إلى الله قائلاً: يا رب ارشدنى كيف أحيا ، فأتاه صوت قائلاً: أرسانيوس اهرب من الناس وأنت تحيا ، وعندما كان أرسانيوس يعيش الحياة النسكية فى الدير ، صلى إلى الله نفس الصلاة ، وايضاً سمع ثانية صوت يقول له: أرسانيوس اهرب ، اصمت ، وعش حياة التأمل الصامت الساكن».(٢٨)

وترد كلمة «تأمل» كثيراً فى كتابات الإخوة الكبادوك باسيليوس واغريغوريوس ، وايضاً فى كتابات بطرس الدمشقى *Damascene*(القرن الثامن) وفيما بعد فى كتابات اغريغوريوس السينائى (من القرن الثالث

عشر) ، لكنها لا ترد كثيراً فى «الأقوال» لأن هذا الكتاب يتناول بالأكثر الرهبان الأقباط ، والذين بالتأكيد لم يكن لهم نفس تعليم اليونانيين هذا ، بل استخدموا كلمة أخرى هى «هيزيخيا *Hesychia*» وتعنى «السكينة» وهى مفهوم أبسط يفترض مسبقاً التكريس الكامل لله واخيراً جحد العالم والخروج منه ، وبجانب ترك العالم ، كى يبلغ الراهب حالة السكينة ، عليه أن يجحد ذاته ويصير «إنساناً مائتاً» أى إنسان بدون شهوات أرضية ، ونقرأ فى «الأقوال» قصة عن راهب طُلب منه أن يعطى كلمات قليلة لينصح بها بعض الناس ، فأجاب «ليس لدى ما أقوله ، لأنى متُ ، والميت لا يتكلم»[٢٩] ، وعندما سألوا راهب أخر أن يذهب لقريته ويرث ثروة أبيه لأن أباه كان يحتضر ، أجاب: «أنا نفسى متُ قبله عن العالم والإنسان الميت لا يرث من إنسان حى»[٣٠].

وقد استخدم مصطلح «هيزيخيا» كل من العلامة أوريجانوس والقديس باسيليوس وأخوه غريغوريوس النيصى والقديس يوحنا ذهبى الفم ونيلوس الناسك والعديد من خلفائهم ، وحياة الناسك الذى يعيش فى هيزيخيا تسمى «حياة السكينة» كما نجد فى كتاب بالاديوس «حياة القديس يوحنا فم الذهب» وفى كتابات نيلوس ويوحنا الدرجى وفى العديد من الأعمال الأخرى[٣١].

أما عن الكلمات والمفردات التى استخدموها ليعبروا عن خروجهم من العالم ، فنجد أنهم استخدموا مصطلحات متنوعة ، وأكثرها شيوعاً «يهرب - هروب» وهذه إشارة إلى الهروب الذى قاموا به ليخلصوا أنفسهم من أخطار ومهالك هذا العالم ، وفى سيرة القديس الأنبا أنطونيوس نقرأ عبارة

«اخرج من خاصتى»[٣٢] وقد رددها ايضاً القديس مارافرآم السريانى ، واستخدم القديس أثناسيوس الرسولى كلمة *apostassein* والتى تعنى «أن يجحد» وهى ترد ايضاً فى رسائل القديس باسيليوس وكتابات القديس فم الذهب وفى التاريخ اللوزياكى لبالاديوس ، كما استخدمت بالمثل كلمة *aparneisthai* وهى تعنى «أن ترفض أو تنكر شيئاً» وتلازمها دوماً كلمة «العالم» أو «نفس» .

واخيراً ، أكثر الألفاظ التى استخدمها النساك شيوعاً كانت كلمة *anachorein* وكلمة *anachoresis* ، الأولى تعنى «أن ينسحب ، أن يتوحد، أن يهرب» أما الثانية فتعنى «إنسحاب أو هروب» ونجد هاتين الكلمتين فى سيرة الأنبا أنطونيوس وفى كتاب «برهان الإنجيل» للعلامة يوسابيوس القيصرى ، وفى رسائل القديس إيسيذروس الفرمى ، وفى كتاب «الأقوال» وفى كتاب بالاديوس «حياة فم الذهب» وفى رسائل نيلوس ، وفى العديد من المصادر المبكرة ، كما استخدمه القديس باسيليوس الذى شرح أن «التوحد» لا يتضمن فقط التغيير المكانى للاقامة بل بالأكثر تغييراً تاماً فى طريقة حياة الإنسان بجملتها[٣٣] .

البحث عن أب *The Search for an Elder*

كانت المزية التى يتمتع بها المبتدئ فى الحياة الرهبانية ، وهى فى الوقت عينه الواجب الموضوع عليه ، أن يقرع أبواب رجال الله القديسين ويطلب نصائحهم ، وقد جعل القديس باسيليوس المشرع الرهبانى العظيم ذلك واجباً على كل من يدخل الحياة الرهبانية ، أى أن يبحث عن أب مرشد ويلتصق به: «اطلب باهتمام كثير وتفكير إنساناً يكون مرشداً آمناً

لك فى طريقة حياتك ، (إنساناً) يعرف جيداً كيف يقود هؤلاء المسافرين نحو الله ، غنى فى الفضائل... وحكيم فى الأسفار المقدسة»(٣٤).

وكان الراهب يقوم برحلات طويلة على الأقدام ، سواء وحده أو مع مجموعة من الإخوة ، كى يجد أباً مشهوراً معروفاً ، وكان هؤلاء الرحالة يقولون دوماً للأب «لقد اسرعنا لتأتى إليك لأننا وجدنا فى كلماتك أشياء كثيرة لم ترد قبلاً حتى على أذهاننا»(٣٥) ثم يضعون أنفسهم تحت إرشاد الأب وكلهم ثقة عظيمة فى أن هذا الأب الروحى يملك «كلمات الحياة» ويحب الناس .

وكان لابد من اهتمام وتدقيق جل عظيم فى اختيار الأب الروحى ، حتى يستطيع الراهب أن يختار الأب المناسب الذى يستطيع أن يعينه ليتغلب على أخطائه وضعفاته ، ولذلك يكتب القديس يوحنا الدرجى: «لنفحص طبيعة أهوائنا وطاعتنا... ثم نختار أبونا الروحى بحسبهما»(٣٦) وكان مسموحاً بفترة تجريبية قبل الاختيار ، وبعد ذلك ، ليس للراهب أى حق أن يحكم على منهج الأب على الإطلاق حتى وإن بدا غريباً ، وإذا لم تكن أوامر الأب مخالفة بوضوح لكلمة الله ، فإن على المبتدئ أن يطيعها حتى إلى الموت(٣٧) ، وكذلك لم يكن مسموحاً بتغيير الأب بعد الاختيار بل يجب أن يظل الراهب تحت إرشاد نفس الأب مدى الحياة ، ويقول يوحنا الدرجى: «الراهب الذى وحّده يسوع المسيح مع رئيسه (أى أبيه) برباطات الإيمان والمحبة ، يجب أن يحفظ هذا الاتحاد حتى لو كان الثمن دمه» رغم انه يبدو فى موضع أخر أكثر مرونة(٣٨).

وعلى أية حال ، كان من الممكن أن يرفض الأب قبول المبتدئ

تلميذاً له ، والأدب النسكي مليئ بهذه الأمثلة ، ومن القصص المميزة في هذا المضمار سيرة القديس الأنبا بولا البسيط الذى ظل بدون أكل لمدة أربعة أيام خارج قلاية الأنبا أنطونيوس لأنه رفض قبوله تلميذاً له ، وشبيهة بذلك هي ايضاً قصة القديس باخوميوس عندما قرع على باب الناسك الأنبا بلامون ، إذ قال له الشيخ بحدة: «لماذا تقرع؟» فأجاب باخوميوس الشاب: «يا أبتى اشتاق أن تسمح لى أن أصير راهباً معك» فلم يرحب الشيخ به بأيدى مفتوحة ، بل على النقيض تماماً حدثه حديثاً مثبطاً عن الدعوة الرهبانية وصعوبتها «لا تستطيع أن تصير راهباً لأنه ليس أمراً هيناً أن تقتنى الحياة الرهبانية»(٣٩) ومضى بلامون قدماً ليقول أن أخرين كثيرين من الذين جاءوه لنفس الهدف لم يستطيعوا الثبات فيه ورجعوا مخزيين عندما وصف لهم باختصار هدف وطريقة الدعوة الرهبانية :

«قوانين الرهبنة التى سلمها لنا الآباء الأوائل الذين سبقونا فى هذا الطريق تتضمن السهر الدائم إلى منتصف الليل واحياناً كثيرة الليل كله حتى الصباح ، وقراءة كلمة الله على الدوام ، بالإضافة إلى عمل اليدين مثل غزل الصوف أو صنع القفف ، حتى لا ننام وحتى نوفى حاجات الجسد ، وما يزيد عن حاجتنا نتصدق به على الفقراء... فالآن بعد أن اخبرتك بقانون النسك ، اذهب وامتحن نفسك أولاً فى كل ما قلته لك» .(٤٠)

ويوحنا الدمشقى ايضاً من (القرن التاسع) واجه نفس الصعوبات عندما قرر أن يستبدل مكتب الوزير بالقلاية الرهبانية .

ولم يكن هذا الرفض نابعاً من عدم رغبة الأب فى مساعدة المبتدئ ،

بل ـ كما قلنا فى الصفحات السابقة ـ كان بسبب وعى آباء البرية بأن عمل الأب صعب للغاية ، وبسبب اقتناعهم المخلص الصادق بعدم قدرتهم على تحمل مسئولية هذا العمل من ناحية ، ومن الناحية الأخرى إنطلاقاً من إيمانهم بأن اقتناء الإنسان للحياة الرهبانية ليس بالأمر الهين ، وكان هذا الرفض فى الوقت عينه اختباراً لرغبة طالب الرهبنة وصدق دعوته ، فإذا كان حماسه بسيطاً مؤقتاً فسوف يتلاشى ويخمد أمام أولى الصعوبات التى سيواجهها ، ولكن ايضاً هذه الصعوبات تقوى وتلهب اشتياق ورغبة هؤلاء الذين يريدون حقاً أن يترهبوا ، ومن هذا المنطلق ، كان ذلك إعداداً رائعاً للنذر الرهبانى .

وفى أعمال يوحنا كاسيان مؤسس رهبنة الغرب نقرأ أن: «طالب الرهبنة لابد أولاً أن يكون خارج الباب لمدة عشرة أيام» وأن «كل واحد (من الرهبان) ينادى طالب الرهبنة "ذاك الذى جحد العالم"» .

والخطوة التالية هى اختبار المتقدم للرهبنة إذا كان قد ترك كل ثروته وأسرته أم لا ، وبعد ذلك يعلمونه قوانين الدير ويلبسونه الزى الرهبانى الذى كان يتكون من جلابية ومنطقة[٤١] ، ثم يوضع المبتدئ تحت إرشاد أحد الآباء دون أن يسمح له بالاختلاط بالرهبان ، وكان عليه أن يخدم الزوار فى بيت الضيافة لمدة عام ، رغم أن المرء يتوقع أن يقرأ أن المبتدئ لم يكن له أى إتصال بالمؤمنين الذين يعيشون فى العالم ، ولعل ذلك كان ايضاً لاختبار قرار المبتدئ أن يترهب ومدى ثباته فيه ، ولا تزال هذه العادة قائمة فى أديرتنا حتى الآن .

وفى قوانينه القصيرة ، يصف القديس باسيليوس ضرورة أن يقرر سائر

أعضاء الشركة الرهبانية قبول الطالب أو رفضه ، ولابد أن يكونوا حاضرين عند قبول الراهب المبتدئ ، وهكذا لم يكن لرئيس الدير القدرة على قبول راهب جديد بدون معرفة الإخوة ، وكان القبول فى العضوية الكاملة فى مجمع الإخوة يأخذ وقتاً لأن الإجراءات كانت متدرجة ، وكان لابد للمبتدئ أن يقضى فترة تحت الاختبار كى يعتاد على حياة الدير ومعناها وهدفها ، وايضاً لكى يعطى رئيسه الفرصة لملاحظته ، ويحدد قانون القديس باخوميوس فترة الاختبار هذه بأنها لابد أن تكون ثلاث سنوات .

وبعدما يختار المبتدئ أباه الروحى فى حالة الرهبنة التوحدية ، أو يضعه رئيس الدير تحت إرشاد أحد الآباء فى حالة رهبنة الشركة ، كان عليه أن يعتبره ـ بحسب التقليد الرهبانى ـ شخصاً سرائرياً تقريباً وأن يطيعه «ليس بسبب رئاسته أو حكمته أو فضيلته ، بل كرمز لربنا نفسه»[٤٢] .

كان التلاميذ واعيين ومدركين تماماً أن أباهم الروحى يحب إخوته كما تحب الأم أطفالها ، ولذلك كان المبتدئ يفتح قلبه لأبيه المرشد ويضع نفسه بين يديه تماماً مثل المادة المرنة (العجينة) فى يد الفنان ، وتحذر «الأقوال» التلميذ من إساءة استخدام محبة أبيه أو فقدان احترامه أو طاعته له ، ويقول الأنبا إيسيذروس أن المبتدئ يجب أن يحب معلمه كأب ويخافه كحاكم .

لكن إذا كان هناك أية كلمة تعبر بوضوح ودقة عن علاقة التلميذ بأبيه ، فهى كلمة «طاعة» فالطاعة هى أحد النذور الرهبانية الثلاثة ، وبحسب يوحنا الدرجى ، كانت الطاعة بين الأمور الأولى التى يجب على الراهب المبتدئ أن يتعلمها بعد جحده للعالم ، ويعرّفها الدرجى بأنها:

«هى الجحد التام المطلق للنفس ، ونُعبر عنه بوضوح فى أعمالنا الجسدية...»[٤٣] والطاعة فى الفكر والمنظور الرهبانى لا تلغى الحرية ، بل تقود إلى تنقية الذهن والقلب وهذه هى الحرية الحقيقية كما يعرّفها القديس كلمنضس السكندرى: «الحرية هى أن نضبط شهواتنا»[٤٤].

فطاعة هؤلاء الآباء لم تكن طاعة عمياء أو سلبية أو غير عاقلة ، بل كانت طاعة ثقة فى أن أباهم يعلن إرادة الله ويعرف الطريق الحقيقى المؤدى للسلام ونقاوة الذهن والقلب ، وهذه بدورها كانت هى الحرية الحقيقية بالنسبة لهم .

ومن الأمثلة المميزة عن الطاعة ، ما أورده يوحنا كاسيان فى كتابه الرهبانى «المؤسسات» :

«نسمع عن أخ يُدعى يوحنا القصير ، عندما أمره أبوه أن يسقى خشبية من حطب النار ، قضى عاماً بأكمله فى هذا العمل ، وهو يحمل الماء لمسافة ميلين ، كما لو كان ذلك وصية إلهية».[٤٥]

ويدع يوحنا كاسيان الأنبا يوحنا القصير يقدم تفسيراً كتابياً لطاعته هذه قائلاً:

«يجب ألا أفكر قط فى الحزن (بسبب الطاعة) ، إذ فى إخضاعى نفسى تماماً لرئيس الدير ، أقتدى لدرجة ما بذاك الذى قيل عنه [وضع نفسه وأطاع حتى الموت] (فل٢ :٨) وهكذا استطيع باتضاع أن استخدم كلماته [لأنى قد أتيت ليس لأعمل مشيئتى بل مشيئة الذى أرسلنى] (يو٦ :٣٨)».[٤٦]

ويشرح التعليم اللاهوتى الخاص بالطاعة ـ والذى تطور فيما بعد ـ أنه إذ سقط آدم بسبب عصيانه وعدم طاعته لوصية الله ، لذلك يجب علينا نحن أن نسلك الطريق المضاد ، أى طريق الطاعة لنصل إلى حالة آدم قبل السقوط ، والتى كانت ـ كما رأينا ـ هدف وغاية الرهبنة[٤٧] .

وفى بعض الحالات كان يُطلب من المتقدم للرهبنة أن يُقدم طلباً مكتوباً للقبول فى مجمع الرهبان وكان لابد أن يعلن فى هذا الطلب أنه سيسلك فى حياة الطاعة كما يتضح من إحدى المخطوطات القبطية.[٤٨]

فرادة شخصية التلميذ

The Disciple's Individuality

ربما يظن القارئ بعد كل ما أسلفناه عن انكار الذات والطاعة والحياة النسكية التى يعيشها الراهب ، أن شخصية المبتدئ تختفى وتمحى تماماً بيد أن هذا الفكر ليس له أى أساس من الصحة كما سنرى ، إذ لم ينس آباء البرية قط أن «الإنسان كيان متنوع للغاية له عديد من العادات» كما يقول القديس اغريغوريوس النزينزى .

وإذ كانوا مربيين ، حاول الاباء أن يستخدموا ما يُسمى اليوم باسم «المنهج المتفرد فى التعليم *individualized*»[٤٩] وفى «الأقوال ـ الأبوفثيجماتا» ينعكس احترامهم الكبير لتنوع الدعوة من شخص لآخر ، ولإختلاف المناهج الشخصية ، ولذلك لم يسعوا لوضع قوانين ثقيلة عامة على المبتدئين بجملتهم .

فكان الآباء يقدرون ويحترمون «المناهج» المختلفة و«تنوع العطايا» إيماناً منهم بأن الروح الواحد هو هو يعمل ويقسم نصيباً لكل إنسان حسبما شاء ، وقد اتفق معظم الآباء على وجود الاختلافات الفردية بين الإنسان والآخر وعلى تنوع النفوس ، فوافق على ذلك كلمنضس(٥٠) ويوحنا الدرجى وإيسيذروس الفرمى (من القرن الخامس) الذى يقول: «لا يسر الناس جميعهم بنفس الأمور ، ولا يشفون جميعهم بنفس الأدوية»(٥١).

وكانت شخصية طالب الرهبنة ونموه الروحى يؤخذان فى الاعتبار ، عندما يساعده أبوه على اختيار أفضل طريق حياة يناسبه ، والقديس يوحنا الدرجى يقدم لنا صورة للرؤية الناضجة التأملية للرهبنة الأولى ويكتب فى سلمه:

«على الذين عزموا على خدمة المسيح حقيقة أن يعمدوا قبل كل شئ آخر إلى اختيار المكان والطريقة والسكنى والممارسات النسكية التى تلائمهم ، وذلك باستطلاعهم الشخصى ومعونة الآباء الروحيين ، لأن الأديرة ذات المعيشة المشتركة لا توافق كل الناس من جهة الشراهة ، وكذلك فإن مواضع العزلة والسكون ليست للجميع من جهة الغضب....»(٥٢).

وايضاً من بين العوامل الأخرى التى كانت تُدرس عند قبول المبتدئ ، كان عامل السن ، ونقرأ فى سلم الدرجى أن الرهبان يجب ألا يعيشوا جميعاً فى موضع واحد ، بل فى أماكن مختلفة بحسب سنهم ، ونفس هذا الكتاب يخبرنا ايضاً أن الأنبا أنطونيوس وضع قوانين أصوام متنوعة لتلاميذه حسب حالتهم(٥٣)، وباخوميوس ايضاً قسّم تلاميذه بحسب

شخصياتهم [٥٤].

وبجانب السن والاحتياجات الجسدية ، والنمو ، والشخصية ، إلخ... كان الجنس ايضاً يوضع فى الاعتبار كما يتضح من كتابات جناديوس إذ يقول فى معرض حديثه عن إيفاجريوس: «وضع ايضاً عقيدة للحياة المشتركة مناسبة لرهبان الشركة والمجمع ، وووضع للعذراء المكرسة لله ، كتاباً صغيراً مناسباً لدينها وجنسها»[٥٥].

إن الدراسة المدققة للماضى تُظهر وتُثبت أن كثيراً من «الأفكار الحديثة» متطابقة ومتماثلة مع أفكار التراث الكلاسيكى والمسيحى ، ومن الجلى أنه فى الرهبنة الأولى كان هناك تمييز واضح بين الآباء والتلاميذ ، ويؤكد الأدب النسكى على دلالة دور الأب ويحدد صفاته ومقوماته وواجباته ، والمصطلحات العديدة التى كانت تستخدم للإشارة إلى الأب توضح أن دوره كان بالدرجة الأولى تربوياً ، وفى الوقت عينه ، المصطلحات الأخرى التى أطلقت على المبتدئ تدل على أن حياته يجب أن تكون تلمذة وتعليم مستمر ، وكان للتلميذ حريته التامة فى أن يختار أباه ، لكن كان من الضرورى بالمثل أن يظل معه ويطيعه فى سائر الأمور ، وفى مدرسة البرية ، كانت شخصانية وفرادة كل مبتدئ تجد كل رعاية واهتمام بها .

المراجع

1) D. Chitty, "*Some Lexicographical Notes*", Studia Patristica III (1962) p.263.

2) For the above terms see: *Apophthegmata*, P.G.65, 73, 137, 153, 177, 256, 257, and 336. See also: Palladius, *Historia Lausiaca*, P.G. 37, 1043 and 1081.

3) Pachomius' *Rule*, P.G. 40, 952, and 949.

4) Epiphanius of Cyprus, *Contra Haereses*. P.G. 42, 765.

5) ________________, *Panarion*, P.G. 41, 156.

6) Basil, *Reg. Fus.*, XXXV, P.G. 31, 1005C and 988A .

7) Isidorus of Pelusium, *Epistolarum Lib.*, P.G. 78, 345C.

8) Macarius of Egypt, *Homily LVIII*, V.H.P. XLII, 361.

9) John Climacus, *Ladder* I, p.51.

10) E. Budge, *The Paradise of the Fathers*, London, 1907, II. p.161.

11) Gregory of Naz., *Oration LXXVII*, 10, P.N.F.VII, 207.

12) Basil, *Reg. Fus.*, P.G. 31, 1029A, 1032, 988.

13) H. Percival, *The Seven Ecumenical Councils*, N.P.F. XIV, 231.

14) *Apophthegmata*, P.G.65, 203.

15) Gregory of Naz., *Oration XI*, P.N.F.,VII, 214 and 37.

16) Theodotus, *Excerpts*, A.N.F., VIII, 47.

17) John Climacus, *Klimax* XXXI, p. 177.

18) *Peri Pachomiou Kai Theodorou*, V.H.P. XL, 193.

19) John Climacus, *Klimax* XXXI, p. 176.

20) Varsanuphius and John, *Question* 23, tr. D. Chitty, P.OR. Tom 31, Fasc 3, p. 480.

21) John Climacus, *Klimax* XXXI, p. 179 and 175.

22) Basil, *Reg. Fus.*, XXX, P.G. 31, 992-993.

23) *Life of St. Pachomius*, V.H.P., XL. 172.

24) John Moschus, *Leimon VII*, P.G. 87, pp.111 and 2857.

25) Varsanuphius and John, *Question 67*, p. 539.

26) Basil, *Reg. Fus.*, XXV, P.G. 31, 984C.

27) *Vie d'Alexandre l'Acemete*, p. 689.

28) E. Budge, *Paradise II*. p.3.

29) *Apophthegmata*, P.G.65,245.

30) Ibid.

31) Palladius, *Vita Chrysostomi*, P.G. 47, 29.

32) Athanasius of Alexandria, *Vita Antonii* , P.G. 26, 865, and Ephraem Syrus, *Opera Omnia*, ed. D.S.Assemani, Rome, 1732-1746, p. 315.

33) Basil, *Epistula*. P.G. 32, 225B.

34) E. Morrison, *St. Basil and his Rule* , Lodon, 1912, p. 52.

35) I. Hausherr, *John the Solitary* (Rome:1939), p.32.

36) John Climacus, *Ladder*, p. 19.

37) Nilus the Ascetic, *De Monachorum Praestantia*, P.G. 79, 1060A.

38) O. Sumner, *"John Climacus"*, The Guid of Pastoral Psychology, No. 63, London, 1950, pp.14-15.

39) W. Nigg, *Warriors of God*, London, 1939, p. 52.

40) L. Lefort, *Saint Pachome*, pp.84-85.

41) John Cassian, *Institutions*, IV, 3-7, P.N.F., XI, p. 219ff.

42) John Climacus, *Ladder*, p. 19.

43) Ibid. p.69.

44) Clement of Alexandria, *Stromata* II, 23, P.G. 8, 1096.

45) E. Workman, *The Evolution of Monastic Ideals*, London, 1896, p.71.

46) Cary-Elwes, *Law, Liberty and Love*, p. 61.

47) Cyril of Alexandria, *Explanatio in Rom.*, P.G., 74, 789.

48) W. Crum, *Varia Coptica*, No. 6, p.9.

49) *Histoire de St. Pachome*. P.OR.IV, Fs. 5, No. 19, 434.

50) Clement of Alexandria, *Stromata* I, 1, A.N.F., II, 30.

51) Isidorus of Pelusium, *Epistolarum Libr.*, P.G. 78, 1484.

52) John Climacus, *Ladder*, I, p. 56.

53) John Climacus, *Klimax XXXI*, p. 117 and 180.

54) Pachomius' *Rule*, tr. G. Schodde. *"The Rule of St. Pachomius"* Presbyterian Review, 1885, p. 682.

55) Gennadius, *Lives of Illustrious Men*, P.N.F., III, 388.

الفصل الرابع

الوسائل التعليمية والتلمذة

فى التربية الرهبانية

Teaching Methods and Discipline in Monastic Education

أ) الوسائل التعليمية

Teaching Methods

إن الدراسة المتأنية للأعمال التربوية الرهبانية كما تتضح فى «الأقوال» وفى الأدب الرهبانى بصفة عامة ، تظهر أن آباء البرية كانوا يراعون للغاية «فرادة *individuality*» المبتدئ ، وهم فى ذلك لم يستخدموا طريقة واحدة أو حتى بضعة طرق ، بل استخدموا تنوعاً غنياً من المناهج والطرق ، حسبما يتفق مع المبتدئ الذى يرشدونه (سنه وحالته الروحية وشخصيته ، إلخ..) واضعين فى اعتبارهم مجمل شخصية الإنسان الذى يتعاملون معه (المتلقّى) ، وكذلك كان لنوع الحياة الرهبانية الذى اختاره المبتدئ ـ سواء الوحدة أو الشركة ـ تأثيره على طريقة ومنهج التعليم ، وفى مقدمة كتاب «برصنوفيوس ويوحنا» (من القرن السادس) نقرأ:

«لكن عندما ننوى أن نقرأ الأمور المكتوبة فى هذا الكتاب ، يجب أن

نعرف أن بعضاً منها قد قيل للمتوحدين ، وبعضاً للذين فى الشركة ، وبعضاً آخر للذين فى الخورس ، وبعضاً ايضاً للكهنة ولقطيع المؤمنين المحبين للمسيح ، وبعض للشباب الصغار أو المبتدئين ، وبعض للمتقدمين فعلاً فى السن والمتدربين فى الزى (الرهبانى) ، وبعض لهؤلاء الذين يقتربون من كمال الفضيلة ، كما يناسب كل أحد أن يسمع ، لأن التعاليم عينها لا تناسب الجميع بنفس القدر...» وتقول المقدمة ايضاً أن الإجابات على الأسئلة الروحية ستكون بحسب مستوى السائل لئلا يُصاب بصغر النفس[١].

وقبل هذا الكتاب بقرنين ، شرح القديس اغريغوريوس النزينزى (٣٣٠-٣٩٠م) أحد مشاهير الآباء فى الحياة الرهبانية أن النفوس المختلفة لابد أن تُعطى تعليماً وإرشاداً متنوعاً ، فالبعض تقودهم العقيدة ، والبعض ينفعهم التعليم البسيط ، البعض يحتاجون للمهماز ، والبعض الآخر الشكيمة ، البعض ينتفعون مِن المديح ، والأخرون ينتفعون من التوبيخ ، لكن كلا الأمران يجب أن يُستخدما فى الوقت المناسب ، وإلا إذا لم يستخدما فى وقت مناسب أو اُستخدما بلا سبب صارا ضارين ، ويقول: «إلا أن هناك منْ يحتاجون للتشجيع ، وأخرون يحتاجون للتوبيخ ، علناً أو سراً بحسب الشخص» ويشرح ايضاً أنه فى بعض الأوقات يجب أن يلاحظ الأب بتركيز حتى أدق التفاصيل ، وفى أوقات أخرى يجب ألا يلاحظها ، بل بينما يرى ، يظهر كأنه لا يرى ، وبينما يسمع ، يظهر كأنه لا يسمع وفى بعض الحالات يجب حتى أن يغضب دون أن يشعر بالغضب ، بحسب طبيعة الفرد الذى يتلقى الإرشاد ، واخيراً ، هناك أخرون ينالون

أفضل معونة من معلم يسلك بإتضاع معاملاً تلاميذه بمستوى مناسب مساعداً إياهم أن يقتنوا سريعاً رجاءً للأمور الأفضل(٢).

ويمكننا أن نجد أفكار اغريغوريوس هذه فى الكتابات الآبائية الأولى ، مثلاً فى كتاب «المربى» للقديس كلمنضس السكندرى حيث يقول أن مربى الإنسانية ، أى المسيح ، يستخدم كل وسيلة ممكنة ، مثل اللوم والتأنيب والتعنيف والتوبيخ والوعيد والصفح والعفو و... الخ.(٣)

وكذلك القديس يوحنا الدرجى ، وهو ينصح سميه رئيس دير رايثو *Raithu*، ينبهه أن يكون ذا تمييز وافراز ، وألا يقول لكل من تلاميذه أن طريق حياة الراهب ضيق وكرب ، وألا يخبرهم جميعهم ايضاً أن النير سهل ، لكن يختبرهم جميعاً ويعظ كل واحد بما يناسبه.(٤)

وهكذا لم يكن العمل التربوى عند آباء البرية روتيناً سهلاً يمكن استخدامه بنفس الطريقة مع جميع التلاميذ ، بل كان عملية شاقة تتضمن العديد من المناهج والطرق التى كانت تستخدم بأساليب متنوعة بحسب طبيعة التلاميذ .

وهذا دليل جل واضح على أن آباء البرية ، بينما عاشوا فى عصر كان الاهتمام فيه بالفرد ضئيلاً للغاية ، أكدوا بكلماتهم وأعمالهم على ضرورة التربية المتفردة ، ويعتبر تنوع المناهج وطرق التعليم ، بجانب التنظيم الذى استخدمه الرهبان ، أهم سمتين من سمات النظام التربوى الرهبانى .

وفى هذا القسم سنتناول أهم الطرق التعليمية وأكثرها انتشاراً ، وذلك تبعاً للترتيب التالى:

١) التعليم بالوسائل اللفظية

أ) وسائل عامة :

١) الوعظ

٢) الحوار

٣) التوبيخ

٤) النصح والإرشاد



ب) وسائل خاصة لحفظ الأفكار

١) المثل

٢) المجاز والرمزية

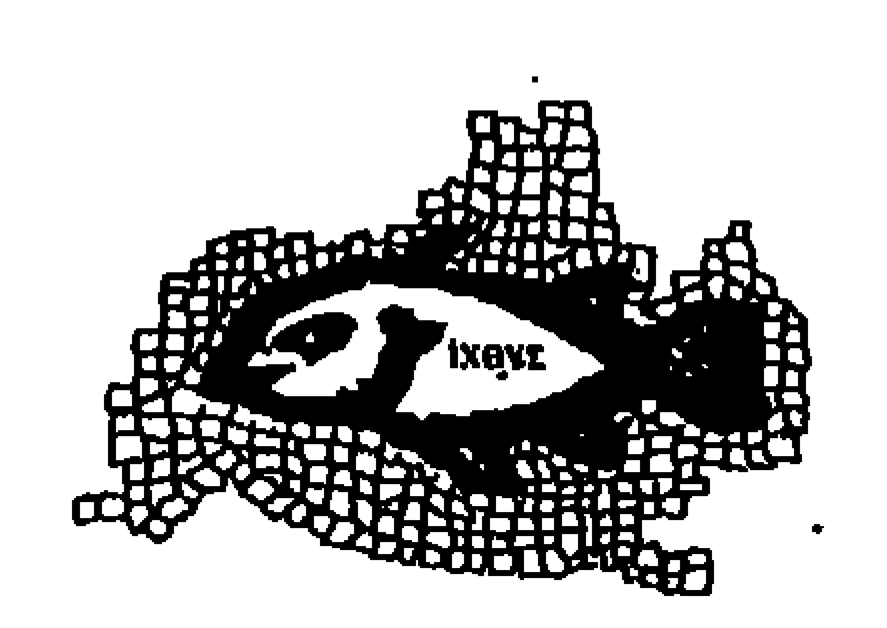
٣) الأقوال

٢) التعليم بالوسائل غير اللفظية

١) رمزية الزى الرهبانى

٢) الوسائل الصامتة

٣) القدوة الشخصية



٣) اختبار النظام الرهبانى

١) فحص الذات

٢) الاعتراف

١) التعليم بالوسائل اللفظية
الشفاهية والمكتوبة

إن أهمية وضرورة التعليم اللفظي لهي واضحة للغاية ، إذ يُشكل ويكوّن الأساس الذي عليه يجب أن ينبني كل عمل في حياتنا بل وحياتنا كلها نفسها ، وفي العهد الجديد نجد تأكيداً على أهمية التعليم اللفظي الذي نظر إليه آباء الكنيسة كخطوة أولى في طريق الخلاص ، ولذلك كرسوا أنفسهم دوماً لعمل التعليم ، فجاءت ثمرته ذلك الأدب الآبائي الغزير ، وكان آباء البرية ـ على وجه الخصوص ـ يؤمنون جداً بقوة وعمل الكلمة ، وفي «الأقوال» كان الطلب «قل لي كلمة» شائعاً للغاية وكان يقوله المبتدئون والشيوخ على السواء لمشاهير الآباء معلمي البرية.(٥)

وبحسب النصوص الآبائية ، هناك مبدأن أساسيان لابد أن يُراعا تماماً أثناء التعليم:

الأول : مبدأ النمو التدريجي *gradual progress*

الثاني: مبدأ تعليم الفرد *individual instruction*

وقد أكد القديس باسيليوس الكبير على أهمية المبدأ الأول ، إذ ذكر أن التعليم والتربية بصفة عامة لابد أن يتم بصورة متدرجة تبدأ من الدروس الأولى السهلة وتتدرج إلى الدروس المتقدمة(٦) ، ونجد صدى هذا الفكر عند القديس إيسيذروس الفرمي(٧) المعاصر للقديس باسيليوس ، وايضاً عند يوحنا الدرجي بعدهما بقرنين(٨) .

أما المبدأ الثانى فقد أكد على أهميته أخو باسيليوس أى القديس اغريغوريوس النيصى ، وايضاً صديق باسيليوس الحميم القديس اغريغوريوس النزينزى فى عظته الكبرى ، ويؤكد الأول أى النيصى على ضرورة التعليم لكن يذكر فى الوقت عينه أنه لا يمكن استخدام نفس المنهج الواحد مع جميع الناس(٩) ، بينما كان سميه النزينزى أكثر تفصيلاً فى هذا الصدد وكتب قائلاً أن الرجال والنساء ، الصغار والكبار ، الأغنياء والفقراء ، الحكام والمحكومين ، الحكيم والجاهل ، الناجحين والفاشلين ، الجبان والشجاع ، لا يحتاجون لنفس التعليم والتشجيع...(١٠) ومن هنا كان استخدام آباء البرية للعديد من وسائل التعليم وأهمها: الوعظ ، الحوار ، التوبيخ ، النصح والإرشاد .

أ) الوسائل العامة

General Methods

١) العظة

رغم أن الوعظ كان شائعاً جداً فى الكنيسة الأولى ، إلا أنه لم يكن مستخدماً فى الدرجة الأولى من الرهبنة أى الوحدة ، على الأقل بطريقة رسمية ، لكنه دخل الرهبنة مع تأسيس رهبنة الشركة ، ربما لأن العدد الكبير لإخوة الشركة كان يتطلب طريقة مناسبة للتعليم الجماعى ، وقد أمر القديس باخوميوس «أب الشركة» بأن يقوم «الوكلاء»(١١) داخل كل دير بإلقاء ثلاثة عظات أسبوعياً ، واحدة يوم السبت واثنين يوم الأحد بجانب عظتين أخرتين يلقيهما رؤساء المنازل يومى الجمعة والأربعاء ، وكانت هذه العظات شبيهة بتعليم الكنيسة الأولى وعظاتها ، فكان الإخوة

يجتمعون حول المعلم ، يستمعون له وهو يشرح الكتاب المقدس ثم يرجع كل واحد إلى قلايته فى سكون وصمت ليتأمل فيما سمعه وليحفظه عن ظهر قلب(١٢) ، وكان لهذه العظات سمة العمومية أى كانت للجميع ، متناولة أموراً عديدة متنوعة .

أما عن أسلوب الآباء فى الوعظ ، فقد حاولوا أن يكون بسيطاً قدر الإمكان حتى يمكن للجميع أن يفهموه ، وبجانب العظات الشفاهية ، كان هناك عظات مكتوبة مأخوذة من كتب متنوعة ، وايضاً كان يتم تبادل الرسائل عندما كان يستحيل التعليم الشفاهى ، فمثلاً كتاب «السلم» ليوحنا الدرجى هو عبارة عن «رسالة» منه إلى سميه رئيس دير رايثو الذى سأله أن يكتب شيئاً لمنفعة رهبان ديره ، ومثال آخر هو كتاب «برصنوفيوس ويوحنا» هو عبارة عن مجموعة منتقاة من رسائل برصنوفيوس إلى يوحنا ، واخيراً ، هناك الألفا رسالة التى خطّها القديس إيسيذروس الفرمى أو البيلوزمى* وهى نتاج روح مثقفة وقلب ملتهب... هذه جميعها ـ بجانب أخريات ـ أمثلة توضح كيف أدرك الرهبان أهمية التعليم المكتوب بجانب التعليم الشفاهى .

٢) الحوار :

كان الحوار منهجاً آخر استخدمه آباء البرية ، وكان يتم بين الأب وأحد تلاميذه ، ويختص بصفة عامة بالتساؤلات الخاصة والمشاكل الشخصية التى يطرحها الراهب التلميذ أمام أبيه المرشد ، وفى سيرة

* انظر كتابنا «إيسيذروس الفرمى» ضمن سلسلة آباء الكنيسة ـ اختوس ΙΧΘΥΣ حيث تجد دراسة تفصيلية عن هذه الرسائل .

القديس باخوميوس يتضح أنه قبل الراحة فى المساء ، كان هناك وقت للتحدث والحوار الذى كان يدور حول موضوع التعليم الذى أعطى أثناء النهار، وفى «الأقوال» ايضاً نجد منهج الحوار ، وفى أحيان كثيرة ، كان الآباء بدلاً من أن يقدموا إجابة عقيدية لأسئلة تلاميذهم ، يبدأوا حواراً معهم ويتبعون أسلوب سقراط وذلك بأن يسألونهم أسئلة أخرى تجعلهم يقدمون إجابات لأسئلتهم نفسها(١٣).

وهكذا ، عندما سأل رجل عسكرى الأنبا ميوس *Mios* عما إذا كانت هناك توبة للخاطئ اجابه: «اخبرنى ، عندما تتمزق عباءتك هل ترميها؟» فأجاب الرجل: «لا أنا أرقعها واستخدمها» وعندئذ قال له الأنبا ميوس: «إذا كنت أنت لم تترك عباءتك ، فهل يترك الله خليقته هو!!».(١٤)

لقد كان الحوار أسلوباً بسيطاً مؤثراً مما جعل اليونانيين يستخدمونه قبل آباء الكنيسة بأمد طويل ، ذلك أنه يجعل التلميذ واعياً بجهله ، ثم يقوده إلى الحقيقة العميقة ، والتى لم تقدم إليه فى صورتها النهائية ، بل استخلصت واستخرجت من عقله هو ، كذلك كان من نتائج هذا الأسلوب أن يتمسك التلميذ بهذه الحقيقة جداً لأنه هو نفسه ـ بمعاونة معلمه ـ الذى اكتشفها .

٣) التوبيخ

لم يكن النساك الأول يرغبون أن يوبخوا أو يلوموا المخطئين من الإخوة إلا إذا طلب منهم هؤلاء الإخوة النصح والإرشاد ، ونرى ذلك عندما وبخ القديس سيرابيون بأبوة وصبر أحد الإخوة.(١٥)

أما رهبان الشركة فكان لهم رؤيـة ومنظـور مختلف لهذا الأمـر ، إذ شعروا أنهم مسئـولون عن إخوتهم ولذلك يجب أن يلومـوهم عندما تكون هنـاك ضـرورة لذلك ، وقد ألقى القديس باسيليوس بمسئولية كبيرة على عاتق الآباء المرشدين الذين لا يلومون ولا يوبخون الإخـوة المخطئين(١٦) ، وهذه إحدى نقاط الإختلاف بين رهبنة الوحدة ورهبنة الشركة .

٤) النصح والإرشاد

لم يستخدم المتوحدون الأوائل هذا المنهج بنفس الدرجة التى استخدمه بها رهبان الشركة ، لأن الإرشاد الشخصى يتطلب مسبقاً علاقة حميمة بين المرشـد والتلميذ ، وهذه لم تكن موجـودة بدرجـة كبيرة بين النساك الأوائـل ، وكانت الرابطة بين الأب والمبتدئ أغلب الأمـر اختياريـة(١٧) ، وما كان موجوداً فعلاً كان لوماً وتوبيخاً أكثر منه إرشاداً ونصحاً شخصياً .

فالإرشـاد الشخصى كما فهـمه الرهـبان كان شيئاً أعمـق جـداً من التوبيخ ، فهو الإجبار المسئول الذى يتخذه المرشد فى مسيرته مع تلميذه نحو الكمـال ، وكـان هذا الإرشاد يتم فى الغـالب أثناء الاعتـراف الذى بجانب أنه «طب روحى» كان ايضاً جلسة إرشاد...

وللقـديس باسيليـوس الكبـير يرجع الفـضل فى رفع عـملية الإرشاد الشخصى إلى مستوى العلم ، ففى قانونه يوضح أن مهـمة وعمل التربية والإرشـاد تحتاج إلى معرفة وخبـرة أكثر مما تحتاج إلى أى شئ آخر ، وفى أعمالـه النسكية ، يمتدح مبدأ الإرشـاد الفـردى ، ويشـرح أنـه بسـبب الخصوصية والفرادة التى يتمتع بها كل إنسان ، وبسبب العدد غير المحدود من الأنماط البشرية ، لذلك من المستحيل أن نستخدم طريقـة واحدة

لتعليم جميع الناس[١٨] ، كما يشير باسيليوس إلى أن المعلمين لا يمكن أن يتعاملوا مع جميع تلاميذهم بنفس الطريقة ، وينصح باستخدام الطرق العلاجية بحسب القوة الجسدية والنفسية لكل تلميذ.[١٩]

ب) وسائل خاصة لحفظ الأفكار

Specific Methods of Perserving Ideas

في وعظ الآباء وتوبيخهم وإرشادهم وتعبيرهم عن أفكارهم ، كانوا يستخدمون طرق عديدة تساعد سامعيهم أن يفهموهم وتزيد من تأثير تعليمهم في نفوس تلاميذهم ، ومن أهم وسائل ذلك كان استخدام الأمثال ، المجاز والرمزية ، الأقوال .

١) المثل

هو تشبيه متطور يُشبّه أو يقارن شيئاً بشئ آخر من نوع مختلف لأغراض إيضاحية ، وتستخدم فيه كثيراً كلمات «مثل ـ كـ ـ يشبه» ، وقد استخدم آباء البرية الأمثال كثيراً كي تُفهم أفكارهم بسهولة أكثر ، وكي يتجنبوا التعاليم النظرية الصعبة ، خاصة إذا كان المستمعون غير متعلمين كما كان الحال مع عدد من الرهبان الأوائل .

وفي سيرة القديس باخوميوس ، مكتوب أن هذا القديس استخدم الأمثال بصورة واسعة[٢٠] ، ونجد فيها نموذجاً من أمثاله ، وفي «الأقوال» ايضاً يشيع قول الأمثال ، وهكذا ، كي يعلم الأنبا بيمن سامعيه عن فاعلية وتأثير الكلمة الإلهية قال هذا المثل:

«إن طبيعة الماء رقيقة ، وطبيعة الصخر صلدة ، لكن قطرات الماء

يمكنها أن تخترق الصخرة ، وبالمثل كلمة الله رقيقة وقلوبنا صلدة قاسية ، لكن من يستمع لكلمة الله غالباً ما ينفتح قلبه ويخاف الله».[٢١]

٢) المجاز والرمزية

بجانب الأمثال ، استخدم الآباء النساك ايضاً «المجاز» وهو نوع متطور من الاستعارة ينقل معنى أعمق من المعنى السطحى باستخدام الرمزية ، وقد اشتهر آباء الاسكندرية باستخدام المنهج الرمزى المجازى فى التفسير وخاصة العلامة أوريجانوس .

وفى أقوال الآباء يرد الكثير جداً من التفسيرات الرمزية للأحداث الكتابية ، فأنبا قرونيوس على سبيل المثال فسر مجازياً مقابلة إليشع مع المرأة الشنومية ، وايضاً قصة العليقة المشتعلة ، وهذا الإتجاه فى التفسير نصادفه كثيراً فى «سلم» يوحنا الدرجى[٢٢].

وفى النصوص الابائية ، بجانب التفسير الرمزى لأسفار الكتاب المقدس نجد ايضاً العديد من الإشارات والمعانى الرمزية للطبيعة[٢٣] .

وهناك منهج آخر فى التعليم يشبه المجاز ، ذلك هو الأسلوب الذى استخدم به بعض الآباء بعض الرموز كوسيلة إيضاح ، ففى رسالة كتبها القديس أموناس* تلميذ الأنبا أنطونيوس نقرأ أن المبتدئين كانوا يعطون أسماء جديدة رمزاً لأن «إنسان الخطية العتيق» قد مات ، وأن المبتدئ

* انظر كتابنا «القديس أموناس» ضمن سلسلة آباء الكنيسة ـ اختوس ΙΧΘΥΣ حيث تجد فيه ترجمة كاملة لرسائله .

«إنسان جديد للنعمة»(٢٤)، ومن أمثلة ذلك ايضاً عادة قص شعر المبتدئين والتى كانت تهدف إلى تعليم المبتدئ أن يترك عنه سائر الأفكار الأرضية العالمية(٢٥).

وبمرور الوقت ، اكتسب العديد من عادات وسلوكيات الرهبان معان رمزيـة ، ولم يكن هذا الإتجاه موجوداً فقط وسط مجامع الرهبان ، بل أن الكنيسة كلها بدأت تعطى معانى رمزية لأشياء كثيرة(٢٦).

٣) الأقوال *Apophthegmata*

أخيراً ، بالإضافة إلى سائر الوسائل الأخرى ، اعتاد آباء البرية أن يعبروا عن أفكارهم بترديد أقوال مشاهير الرهبان ، وهذه كانت إجابات مشاهير المعلمين الروحيين على أسئلة رهبان مبتدئين أو متقدمين أو حتى مؤمنين عاديين .

وكان المعلم يهدف من استخدام «القول» أن يعطى قانوناً قصيراً مُعبّراً عنه بكلمات موجزة كى يشبع حاجة السائل الخاصة ، ولذلك يجب ألا تُفهم أقـوال آبـاء البرية كقوانين قاسية جامدة واجبة التطبيق على جميع الناس فى جميع المواقف ، بل يجب أن يُنظر إليها كعبارات عامة مختصة بالحياة الرهبانية وكمبادئ عامة واسعة .

وبحلول نهاية القرن الخامس الميلادى ، تم تجميع باقة متنوعة من أقوال مشاهير معلمى برارى مصر ، وفى القرن السادس غالباً تم ترتيب هذه المجموعة ترتيباً أبجدياً بحسب أسماء الآباء الواردة أعمالهم أو أقوالهم فيها ، وتسمى «الأقوال ـ الأبوفثيجماتا ***Apophthegmata***» وهدفها

هدف تعليمى تربوى كما هو مذكور بوضوح فى مقدمتها .

٢) التعليم بوسائل غير لفظية

Instruction by Non-Verbal Means

بعدما يكون المبتدئ قد تلقى قدراً كافياً من التعليم بالوسائل اللفظية ، ويصير قادراً على أن يفهم ويقيّم معنى وقيمة الأحداث ، يبدأ آباء البرية فى تعليمه بالأعمال ايضاً ، وهنا سنتناول فقط أربعة من هذه الوسائل غير اللفظية .

١) رمزية الزى الرهبانى

إن أهم يوم فى حياة الراهب هو يوم سيامته راهباً وإرتدائه لثياب الرهبنة ، وبالشرح الرمزى لهذه الثياب ، صارت من أهم وسائل التعليم غير اللفظية .

وقد ظهر الزى الرهبانى فى فترة مبكرة جداً من تاريخ الحياة الرهبانية ، ونجد دلائل مبكرة تثبت وجوده ترجع لبدايات القرن الرابع ، ويذكر عن القديس باخوميوس مثلاً أن الأنبا بلامون ألبسه الزى الرهبانى بمجرد أن قبله راهباً[٢٧] ، فنقرأ فى «سيرة باخوميوس» :

«وبعد أن اختبره لمدة ثلاثة أشهر كاملة وجد فيه من العزم والشجاعة الشئ الكثير ، فقام حينئذ وأخذ الزى الرهبانى مع المنطقة ، ووضعهما على المذبح ، وقضيا الليل كله فى الصلاة على الملابس ولما طلع النهار ألبسه إياها وهما يمجدان الله فرحين» .

كذلك ينص القانون السادس عشر من قوانين القديس باخوميوس على أن المبتدئ بعد أن يتعلم المزامير و«معرفة الإخوة» يلبسونه الزى الرهبانى .

وكان الزى الباخومى يتكون من جلابية بدون أكمام *tunic*، منطقة ، عباءة من جلد الغنم ، قلنسوة ، وصندل.(٢٨)

وفى «الأقوال» مصطلح «إسكيم *Schema*» والذى يشير إلى الزى الرهبانى وبصفة عامة إلى الحياة الرهبانية ، يتكرر مرات عديدة ، كما يرد ايضاً فى كتابات إيفاجريوس البنطى وسرابيون (تنيح عام ٣٦٢م) وعادة يُسمى الزى الرهبانى باسم «الزى الملائكى» .

وقد قدم يوحنا كاسيان وصفاً دقيقاً للزى الرهبانى فى كتاباته ، وأرفق به تفسيراً وشرحاً رمزياً لكل قطعة منه ، فيقول أن الراهب يرتدى قلنسوة طفل ليتذكر دوماً أنه لابد أن يحيا كطفل ، والجلابية التى بدون أكمام تُعلم الراهب أن يقطع الشهوات الأرضية ويلقيها عنه.(٢٩)

وفى تاريخ سوزومين (كتبه عام ٤٣٩م) نجد شرحاً رمزياً آخر للزى الرهبانى الباخومى(٣٠) ، وبعد قرن من الزمان كتب الأنبا دوروثيؤس (من القرن السادس) تفسيراً أشمل للزى الرهبانى(٣١) ، وفى نفس الفترة نجد وصفاً وشرحاً آخر للزى قدمه مكسيموس المعترف (٥٨٠-٦٢٢م) واضاف معلومة هامة ألا وهى أن اللون الأسود قد قُبل كلون مناسب ولائق للزى الرهبانى(٣٢) .

وعندما يرتدى الراهب الزى ، يضع نصب عينيه معنى كل قطعة منه، وهكذا يكون الزى بالنسبة للراهب معلماً لا يكل يذكره بالتزاماته وواجباته

ودعوته والطريقة التي يجب أن يسلكها في كل حين ، فعندما كان الراهب يرتدى منطقته ، كان يتذكر أنه يجب أن يكون مستعداً متأهباً فى كل وقت ليخدم مشيئة الرب[٣٣] ، واللون الأسود كان يذكره أنه شخص ينوح على خطاياه وأنه لابد أن يكون مجهولاً «للعالم» ، وبالمثل ، كل قطعة من ثياب الراهب تعلمه وتذكره بشئ هام عن طريق ونهج الحياة الرهبانية .

وفى قانونه الطويل ، سؤال رقم ٢٢ ، يكتب القديس باسيليوس ايضاً وصفاً لرؤيته وتصوره للزى المسيحى ويشير إلى ثلاثة فوائد نافعة له:

١) هو طريقة للاعتراف بالنذر المسيحى (التكريس) .
٢) نافع كوسيلة اتصال بين المسيحيين الذين يجب أن يتعرفوا بعضهم على بعض بواسطة بساطة ثيابهم .
٣) يجعل المسيحيين جميعهم وبخاصة الضعفاء ، حريصين ومدققين جداً فى حياتهم وسيرتهم لأن ثيابهم تعلن إيمانهم ويتوقع منهم المجتمع أن يعيشوا ويسلكوا بحسب المعايير الأخلاقية المسيحية .

٢) الوسائل الصامتة

احياناً كان آباء البرية يتصرفون بطريقة صامتة محيرة بل وحتى غير مفهومة لكى يؤثروا فى تلاميذهم ويجذبوا انتباههم ، وعندما كان انتباه الإخوة يبلغ ذروته ، يبدأ الآباء يشرحون لهم مغزى أفعالهم غير المفهومة هذه ، وقد حفظ التقليد النسكى العديد من هذه الأفعال والتصرفات التعليمية ، والتى كانت طريقة غير تقليدية فى التعليم ، فمثلاً نقرأ فى سيرة القديس القوى الأنبا موسى الأسود:

«أخطأ أخ فى الاسقيط يوماً فانعقد مجلس لإدانته وارسلوا فى طلب أنبا موسى ليحضر فأبى وامتنع عن الحضور ، فأتاه قس المنطقة وقال: إن الآباء كلهم ينتظرونك ، فقام وأخذ كيساً مثقوباً وملأه وحمله وراء ظهره وجاء إلى المجلس ، فلما رأه الآباء هكذا قالوا له: ما هذا أيها الأب؟ فقال: هذه خطاياى وراء ظهرى دون أن أبصرها ، وقد جئت اليوم لإدانة غيرى عن خطاياه ، فلما سمعوا ذلك غفروا للأخ ولم يحزنوه فى شئ» (٣٤).

كذلك نقرأ ايضاً فى بستان الرهبان عن أنبا أيوب وأنبا بيمن وإخوتهما:

«قيل أنهم كانوا سبعة إخوة من بطن واحد ، وصار الجميع رهباناً بالاسقيط ، فلما جاء البربر وخربوا الاسقيط فى أول دفعة ، انتقلوا من هناك واتوا إلى موضع آخر يدعى ابرين ، فمكثوا هناك أيام قلائل ، وحينئذ قال أنبا أيوب لأنبا بيمن لنسكت جميعنا كل من ناحيته ، ولا يكلم أحدنا الآخر كلمة البتة وذلك لمدة أسبوع ، فأجابه أنبا بيمن لنصنع كما أمرت ، ففعلوا كلهم كذلك ، وكان فى ذلك البيت صنم من حجر ، فكان أنبا أيوب يقوم فى الغداة ويردم وجه ذلك الصنم بالتراب ، وعند المساء يقول للصنم: اغفر لى ، وهكذا كان يفعل طوال الاسبوع ، فلما انقضى الاسبوع قال أنبا بيمن لأنبا أيوب: لقد رأيتك يا أخى خلال هذا الأسبوع تقوم بالغداة وتردم وجه الصنم وعند المساء تقول له اغفر لى أهكذا يفعل الرهبان؟ فأجاب أنبا أيوب: لما رأيتمونى وقد ردمت وجهه هل غضب؟ قال: لا ، فقال: ولما اعتذرت له هل قال لا اغفر لك؟ قال:

لا ، فقال أنبا أيوب لاخوته: ها نحن سبعة إخوة ، إن اردتم أن يسكن بعضنا مع بعض فلنصر مثل هذا الصنم الذى لا يبالى بمجد أو هوان». [٣٥]

وفى تعاليمهم ، اجتهد آباء البرية دوماً أن يكونوا معبرين للغاية وواضحين كى يستطيع مستمعوهم أن يفهموهم بصورة أفضل ، وكان الآباء يؤمنون جداً بالقوة التربوية والتعليمية للمثال ، إذ أن الله نفسه استخدم أسلوب المثال عن طريق الملائكة لكى يعلم أناسه المختارين ، فمثلاً كى يعلم الله أحد الرهبان كيف أن الأعمال الأخلاقية تكون بلا فائدة ولا نفع عندما لا تكون دوافعها نقية ، قاده إلى موضع رأى فيه رجلاً يرفع ماءً من عين ويسكبه فى بئر ، لكن البئر كان متصلاً بالعين فكان الرجل يتعب باطلاً ليملأ البئر ، وبالمثل ـ كما يقول النص ـ هؤلاء الذين يصنعون أعمالاً أخلاقية عديدة ، لكن بدون دوافع نقية ، يتعبون باطلاً إذ ليس لهم أى جعالة سمائية[٣٦] .

٣) التأمل فى الطبيعة

كانت هذه أساساً وسيلة تعليم ذاتى ، يتدرب المبتدئون على استخدامها لأن آباء البرية كانوا يعتبرون الطبيعة والخبرة معلمين جيدين ، وهكذا عندما سخر أحد الفلاسفة من القديس الأنبا أنطونيوس ووصفه بأنه يجهل القراءة ، أجابه أنطونيوس قائلاً: «إن كتابى أيها الفيلسوف هو طبيعة الأشياء المخلوقة ، وهو موجود وقتما أريد أن أقرأ كلمات الله»[٣٧] .

فمنذ هذا العصر المبكر للغاية ، رأى الرهبان الطبيعة والكون كله

كوسيلة وأداة تعليمية فعالة ، تُصوّر فى آن واحد عظمة الخالق وايضاً عنايته الإلهية ، وفى كتابه «الهيكساميرون *Hexameron* أى ستة أيام الخليقة» يتصح القديس باسيليوس قارئه أن يتأمل فى المخلوقات الحية[٣٨] ، إذ أن النحل والحيوانات الأخرى يقدم دوماً دروساً نافعة للإنسان ، بحسب القديس كيرلس الأورشليمى[٣٩] .

وقد اعطى هذا النوع من التأمل للرهبان إمكانية الدراسة المتأنية لبيئتهم واستخدام تشبيهات وصور بلاغية مأخوذة من الطبيعة فى تعليمهم يكون لها معناها ودلالتها للإنسان ، كما هو الحال فى رسائل القديس أموناس[٤٠] التى تُعتبر أغنى وأهم مصدر عن تاريخ الرهبنة المبكرة فى برية الاسقيط ، لكن لابد أن نوضح هنا أنه فى نفس الوقت ، كان العديد من الرهبان فى جهادهم وانتباهم لحياتهم الباطنية ، يغضون النظر عن التأمل فى بيئتهم المادية ، وفى «الأقوال» قيل عن الأم سارة أنها عاشت لمدة ٦٠ عاماً على ضفة نهر ولم تنظره قط[٤١] .

واخيراً ، الحياة نفسها كانت معلم قدير[٤٢] ، وأخطاء الراهب وحروب الشيطان وأعمال الروح القدس ، كل هذا جميعه يعلم الراهب أشياء عديدة ، ويكتب القديس يوحنا الدرجى قائلاً :

«ليتشجع الذين استعبدتهم أهواؤهم ، لأنهم وإن كانوا قد سقطوا فى كافة الحفرات واقتنصوا بسائر الفخاخ وانسقموا بكل الأمراض فسيصيرون بعد تعافيهم مصابيح منيرة ومرشدين وأطباء للجميع يكشفون لهم أعراض كل مرض وينقذون بفضل تجربتهم من أشرف على السقوط»[٤٣] .

٤) القدوة الشخصية

كانت القدوة الشخصية أفضل وسيلة غير لفظية استخدمت فى النظام التربوى الرهبانى ، وبصفة عامة أهم وسيلة ، لأنها كانت تعطى مصداقية لسائر الوسائل الأخرى ، سواء لفظية أو غير لفظية ، وكانت تعتبر ختماً على كل تعليم أُعطى ، ويؤكد الأدب النسكى المبكر مرات ومرات على أهمية ودور القدوة الشخصية كوسيلة تعليمية ، وقد قيل عن القديس باخوميوس أنه قاد تلاميذه بقدوته أكثر مما بتعاليمه ، وبمثاله الشخصى ربح محبتهم وتكريسهم للمسيح يسوع .

وفى «الأقوال» يمكننا أن نجد عدداً من الأقوال التى تؤكد على أهمية المثال والقدوة الشخصية ، فمثلاً عندما سأل أخ الأنبا بيمن عما إذا كان يجب أن يقدم تعاليم ونصائح للرهبان الذين تحت إرشاده ، أجابه أنبا بيمن: «... ليس تعاليم ووصايا بل اعمل أنت العمل أولاً ، لا تكن مُعطى قانون ، بل نموذجاً ومثالاً لهم» .(٤٤)

وكان آباء البرية مقتنعين أن الشخص إذا لم يستطع الإنتفاع من مثالهم ، فلن يستطيع أن ينتفع من تعاليمهم ايضاً ، وكانوا يعتبرون القدوة الشخصية وسيلة للتعليم أقوى من أى وسيلة لفظية أخرى .(٤٥)

والأنبا شيشوى عندما طلب منه أخ أن يقول له «كلمة» أجابه «لماذا ترغمنى أن اتكلم باطلاً؟ انظر ، افعل كل ما تراه»(٤٦) .

وآباء البرية كرواد فى «سيكولوچية العمق» عرفوا أن وجود شخصية روحية أخلاقية بالقرب من الإنسان يكون لها تأثيراتها وإنطباعاتها القوية

للغاية عليه ، ولذلك أكدوا على أهمية المثال الحي الشخصي ، ، وحدث أن سأل أخ الأنبا بيمن ما الذى يجب أن يفعله لأن نفسه لا تخاف الله ، فاجابه أنه يجب أن يلتصق بإنسان يخاف الله ، وسيتعلم أن يخاف الله مثله[٤٧] .

وتبرز هذه الفكرة ايضاً عند القديس باسيليوس الذى قال أن التلميذ يرث كل فضائل أبيه الروحى[٤٨] ، كما عبر القديس اغريغوريوس أسقف نيصص شقيقه عن الأمر عينه فى كتاباته[٤٩] .

وأوضح القديس إيسيذروس الفرمى أن المعلم يجب أن يعلم تلاميذه بسلوكياته أكثر مما بكلماته ، فالقدوة الشخصية تحث الإنسان على حياة الفضيلة أكثر مما تفعل الكلمات[٥٠] .

ونيلوس الناسك كان مثالاً أخر لآباء البرية الذين أكدوا على أهمية القدوة الشخصية ، وشرح أن المثال الشخصى وكل الأعمال الشخصية ايضاً يجب أن تتبنى على أساس نظرى ، وهذه القدوة الشخصية ـ بحسب نيلوس ـ لها تأثيرها الإيجابى حتى على النفوس القاسية العقيمة .

واخيراً من الجدير بالذكر أن الآباء بصفة عامة ـ وليس فقط آباء البرية ـ كانوا ينظرون إلى القدوة الشخصية كوسيلة هامة ومتميزة للتربية ، فكلمنضس السكندرى مثلاً قال أن مثال وقدوة هؤلاء الذين عاشوا حياة القداسة هو وسيلة ممتازة لفهم وممارسة الوصايا[٥١] ، وفى موضع آخر يقول أن النماذج الشخصية والقدوة لها دورها الكبير فى مساعدة الإنسان فى جهاده ، بل ويخصص فصلاً كاملاً من كتابه «المربى» ليشرح فيه

أهمية القدوة والنماذج فى تربية الإنسان وتعليمه بطريقة صحيحة .

فالتعليم بالقدوة كان أعظم منهج فى التربية حث عليه النساك والسواح الأوائل ، ثم جاء البحث الحديث والدراسات المحدثة ليظهر أن قدوة المعلم الشخصية لها تأثير كبير على الطلاب الذين يميلون إلى تشخيص أنفسهم (التماثل) مع معلميهم وإلى محاكاتهم ، وهكذا ينصح علماء التربية بالاتصال الشخصى بين الطلاب والمعلم والمعاينة عن قرب[٥٢] .

كذلك لابد أن نذكر هنا أن العبادة الجماعية الليتورچية كانت وسيلة تربوية هامة ، فمشاعر التوبة والحزن والشكر والخبرة الشخصية الأخرى التى تنتج من عيش الطقس والاشتراك فى العبادة الليتورچية ، كان لها قيمة جل عظيمة فى تربية ونمو الرهبان ، وقد أكد آباء الكنيسة دوماً على أهمية العبادة الجماعية .

اخيراً ، بنية الدير والمناخ الرهبانى العام فى المنطقة التى يعيش فيها الرهبان ، كانت وسائل فعالة فى التربية الرهبانية ، وقد اظهرت الدراسات الحديثة التى تمت على مستوى الكليات أن القيم التى هى جزء من البنية الإجتماعية للكلية ، تنقل إلى الطلاب سواء كان ذلك عمداً أو عن غير عمد[٥٣] .

وإجمالاً ، العبادة الجماعية ، البرنامج الرهبانى وبنيته الرهبانية ، وبصفة عامة الحياة الاختبارية وسط جماعة رهبانية ، كانت وسائل تربوية فعالة ومؤثرة ساعدت الرهبان على بلوغ أهدافهم فى أقصر وقت ممكن .

وتنوع الطرق والوسائل التربوية لم يجعل مهمة الأب سهلة ، بل

بالتأكيد جعلها أكثر صعوبة ومسئولية ، فكان المنتظر من الأب أن يكون قادراً على اختيار الطريقة المناسبة و«العلاج» المناسب لكل واحد من تلاميذه... ولذلك كان آباء البرية يؤكدون كثيراً على مقومات الأب المرشد .

٣) اختبار النظام الرهبانى

A Test of The Monastic Educational System

كان من المتوقع من كل الوسائل التربوية السالفة الذكر أن تقود الراهب إلى:

١) فحص الذات

٢) الاعتراف

وإذا لم تقد الراهب إلى ذلك ، يكون هناك قصور فى النظام التربوى ، أو يكون التلميذ غير لائق لهذه التربية .

١) فحص الذات

كان أحد المتطلبات الهامة للاعتراف الفعال ، وبصفة عامة لأى نوع من التقدم الروحى ، هو أن يعرف المبتدئ نفسه جيداً جداً ويكون قادراً على عرض نفسه على أبيه الروحى كى يختار كطبيب ماهر الطريقة المناسبة للتعليم و«الدواء» .

ومعرفة النفس هذه هى «بحق أصعب العلوم»[٥٤] تتطلب فحصاً ذاتياً مدققاً للغاية وواعياً ، ولذلك يؤكد الأدب الرهبانى المبكر على الحاجة إلى

الفحص المدقق للذات[٥٥] ، فيعتبره القديس أموناس أحد الالتزامات الأولى الموضوعة على الراهب ، ونقرأ في سيرة الأنبا أنطونيوس «ليحاسب كل إنسان نفسه عن أعمال النهار والليل»[٥٦] وايضاً يقول أبو الرهبنة «فليلاحظ كل منا نفسه ونكتب أعمالنا ودوافع النفس»[٥٧] ، ويقول برصنوفيوس أن الراهب لابد أن يفحص ويلاحظ أفكاره ويشرح كيف يجب أن يكون ذلك:

«عندما يأتيك فكر انتبه إلى ما يلده (هذا الفكر) وهاك مثالاً: أنت تفكر أن شخصاً ما قد أهانك ويزعجك فكرك كي تخبره (تعاتبه) عندئذ قل لفكرك "إذا اخبرته فإني اغيظه وهو يحزن ضدى إذاً أنا احتمل قليلاً ويمر الأمر" ، لكن إذا لم يكن الفكر تجاه إنسان آخر بل الإنسان في ذاته يفكر في الشر ، إذاً لابد أن يبحث الإنسان عن الفكر ويقول "فكر الإنسان يقود إلى الجحيم" فتبطل عنك (الأفكار) ومع سائر الأفكار اصنع هذا الأمر عينه»[٥٨] .

وهكذا لم يكتف آباء البرية بالتأكيد على ضرورة فحص الذات ومحاسبة النفس فقط بل وايضاً شرحوا كيف يتم فحصها ، وكانت غايتهم محاربة التصورات والميول الشريرة في بدايتها الأولى ، وقد كان يوحنا الدرجي معبراً للغاية عندما كتب:

«اجلس في مكان عال وارصد نفسك إن كان لك في الرصد دراية ، فتبصر حينذاك أى لصوص يأتونك ليدخلوا ويسرقوا عناقيدك وكيف ومتى ومن أين يأتون وما عددهم»[٥٩] .

وقد أسهم هدوء البرية وسكونها وطبيعة الحياة الرهبانية التى بلا هم ، إسهاماً كبيراً فى عملية فحص الذات المنهجى التى يقوم بها الراهب .

٢) الاعتراف

كانت الرهبنة منذ بدايتها الأولى واعية ومدركة بعمق للخطية ، الأمر الذى قاد الآباء إلى الاعتراف الصادق الذى يعتبره مشرعو الرهبنة الأولون أحد الأعمال الأساسية الواجب على المبتدئ ممارستها ، وصار فيما بعد ممارسة يومية فى حياة الرهبان.(٦٠)

وبجانب كونه سر ضرورى ولازم ، كان الاعتراف ايضاً أقدس وأعظم أبعاد العلاقة الوطيدة التى تجمع بين الأب والتلميذ ، ومن هنا كانت مهمة أب الاعتراف جل صعبة وأساسية ، وتتطلب قدراً ليس بالقليل من المهارة والخبرة السيكولوچية ، إذ أن الارشاد الروحى ـ كما أسلفنا ـ كان يتم غالباً أثناء الاعتراف .

ومن النماذج الرائعة لأب الاعتراف المثالى كان الأنبا مقاريوس الكبير الأب الروحى للاسقيط ، وقد حدث أن زار مرة راهباً صغيراً يُدعى ثيؤبيمبتوس *Theopemptos* وكان يعرف أن هذا الأخ يعانى من قتالات كثيرة ، فسأله مقاريوس «كيف حالك يا أخى؟» وإذ كان الراهب يخشى أن يقول الحقيقة أجابه بصيغة رهبانية معروفة «حسن بصلواتك» عندئذ سأله الأب المختبر باهتمام «ألا تُحارب فى أفكارك» فجاءت إجابته «حتى الآن أنا على ما يرام» فقال له الأب العظيم بطريقة تربوية تماماً «أنا نفسى أمارس إنكار الذات لسنوات عديدة ويكرمنى جميع الناس ، لكن مع أنى

رجل شيخ إلا أن شيطان الزنى لا يزال يؤلمنى» فتشجع المبتدئ بهذا القول واعترف بتجاربه «صدقنى أنه يؤلمنى أنا ايضاً».. فالناسك الشيخ ، تظاهر أن الأفكار تحاربه هو الآخر لكى يشجع الراهب الصغير على الاعتراف.(٦١)

وغالباً ما كان آباء الاعتراف يضعون قوانين وعقوبات على الإخوة الذين أخطأوا ، وكان هناك أنواع متعددة من العقوبات مثل: عمل مئات الميطانيات ، الصوم ، الصلوات الإضافية ، عدم التقدم للأسرار لفترة معينة ، إلخ... ولم يكن هدف هذه القوانين معاقبة المخطئ بل أن تساعده ليفهم ويعرف خطأه ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ، تمنحه فرصة ليثبت أنه يريد أن يفعل شيئاً ما للإقلاع عن خطاياه كعلامة على توبته ، ورغم أن القانون الكنسى قد قنن وحدد نوع ومدة قوانين كل خطية ، إلا أن الآباء كانوا يضعون فى اعتبارهم دوماً شخصية المخطئ أكثر من القانون الكنسى ، وقد أشار القديس باسيليوس الكبير إلى أن آباء الاعتراف لابد أن يضعوا فى اعتبارهم سن المخطئ ودوافعه وعمله وقصده وتوجهاته وسلوكه بعد الخطية.(٦٢)

وبصفة عامة ، كان الفكر الرهبانى يرفض دوماً فترات التوبة الطويلة ، فعندما اخبر أحد الإخوة ذات مرة الأنبا بيمن انه قد اقترف «خطية عظيمة» ويريد أن يتوب عنها لمدة ثلاث سنوات ، اجابه الشيخ «هذا كثير جداً» فقال الأخ «إذاً بالتأكيد عام واحد» فكانت الإجابة مثيلة «هذا كثير جداً» بل وحتى الأربعين يوماً كانت فترة طويلة بالنسبة لهذا القديس فقال للأخ «أن الإنسان إذا تاب من كل قلبه ولم يخطئ ثانية ، يقبله الله فى ٣ أيام»(٦٣) وهذه الإجابة عينها رددها الأنبا شيشوى ، فبحسب آباء

البرية ، كانت نزعات الإنسان وندامته أهـم من طول فترة التوبة ، ويتصور لنا هذا الفكر بوضوح وجمال فى قصة بائيسة التائبة التى عاشت فى الخطية زماناً طويلاً ، لكن عندما زارها الأنبا يوحنا القصير وافتقدتها النعمة ، تابت ومضت الى البرية ، لكنها تنيحت فجأة وهى فى طريقها للبرية ، وتقول خاتمة سيرتها: «إن ساعة توبتها الواحدة كانت مقبولة أكثر من توبة الذين قضوا زماناً أطول فى التوبة ولكن لم يظهروا مثل هذه الحرارة» .(٦٤)

وهدف الاعتراف كما تخبرنا «الأقوال» هو أن يقتنى التائب السلام بتحرره من حمل خطاياه الذى يثقل ضميره ، وإذا ترجمنا ذلك إلى لغة مصطلحات علم النفس الحديث ، نقول أن الراهب الذى يفحص نفسه بتدقيق ويعترف بصدق ، فى الغالب لن يلقى بخطاياه فى لاشعوره ، وبالتالى لا تتحول الخطية إلى عنصر فى شخصيته ، وهذا يفسر لنا قول القديس اغريغوريوس أن الاعتراف هو «علاج» هام للشر.(٦٥)

اخيراً ، بجانب أن الراهب لابد أن يتضرع ويتذلل لأجل خطاياه ، احياناً كان الراهب يقبل إتهامات باطلة موجهة له ، أى يقبل اللوم والعقاب على شر لم يرتكبه ، وأبرز أمثلة ذلك قصة مارينا العذراء التى تزينت بزى الرجال واتهمت بأنها أب لطفل لقيط ، فلم تنكر هذا الاتهام أو تنفيه ولم تكتشف براءتها إلا ساعة دفنها..(٦٦) وهكذا كان أسلوب تبرير الذات وإلقاء اللوم على الأخرين والذى استخدمه أبونا آدم ، غريباً عن العقلية الرهبانية ، فكان الآباء متدربين ومعتادين على إتهام الذات ولومها.

وكان المصطلح الفعلى الذى استخدمه الرهبان للإشارة إلى أب الاعتراف هو «بنفماتيكوس *Pneumatikos*» وهو يعنى حرفياً «إنسان روحى» وكان يُستخدم فى الحديث عن الرهبان الكبار ورؤساء الأديرة والمرشدين الروحيين بصفة عامة .

ولابد أن نذكر هنا أن اقتناع النساك الأولين بفترات التوبة القصيرة كان نقطة تباين فيها رأيهم عن باقى الكنيسة وايضاً عن الرهبنة اللاحقة زمنياً .

ب) التلمذة فى النظام التربوى الرهبانى

Discipline in The Monastic Educational System

يُمكن أن تُفهم التلمذة إما كمجموعة من القواعد تحكم السلوك أو كتدريبات فى ضبط النفس والطاعة والخضوع لمعايير محددة ، أو وضع قوانين وتأديبات كنسية على المخطئ ، والمصطلح كما هو مستخدم هنا ينتقل من معنى لآخر من هذه المعانى المترابطة .

والتلمذة عنصر أساسى للغاية فى الحياة المسيحية لأنها أصلاً حياة تلمذة وطاعة لمشيئة الله ، وقد امتدح آباء الكنيسة فوائد التلمذة ومناقبها(٦٧) والنساك الأوائل الذين كانوا يسكنون معاً شعروا بالحاجة إليها مبكراً للغاية كما يتضح من قوانين القديس باخوميوس .

وكانت العقوبات والمكافآت وسيلتين حاول بهما المربون والمعلمون أن يتلمذوا أبناءهم .

١) العقوبات

يعرّف الأدب الرهباني بوضوح شديد غاية وهدف العقوبات وايضاً الطريقة التي ينبغي بها استخدامها ، وفي سيرة باخوميوس يذكر أنه وبخ أحد الإخوة «لأجل خلاصه»[٦٨] .

وهكذا استخدمت العقوبات لمنفعة المخطئ وكانت تهدف إلى إعادته إلى رشده كما يذكر يوحنا الدرجي .

ويضيف القديس باخوميوس ايضاً أن الأب لابد أن ينصح المخطئ أولاً وبعد ذلك يوبخه[٦٩] ، كذلك قدم القديس باسيليوس في قانونه درجات متنوعة من العقوبات ، مثل الحرمان من البركة ، الحرمان من الطعام ، العزل[٧٠] ، ويذكر ايضاً أن هذه العقوبات لابد أن تكون علاجية ومتناسبة مع الخطأ .

وفي البند الواحد والخمسين من قانونه الطويل ، يعكس القديس باسيليوس فكر القرن الذي يعيش فيه بدقة ووضوح ، فيكتب:

«... التقويم لابد أن يستخدم مع المخطئ بنفس طريقة الأطباء الذين لا يغضبون من المرضى بل يجاهدون ضد المرض ، وهكذا يجب أن تهاجم الرذيلة ، وضعف النفس لابد أن يعالج ـ إذا كان هناك ضرورة ـ بقانون أكثر قسوة :

فمثلاً الكبرياء لابد أن يعالج بتدريب ممارسة الإتضاع

الحديث البطّال بالصمت

النوم الكثير باليقظة والصحو في الصلاة

الكسل بالعمل

الطمع بالصوم عن الطعام»[٧١].

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن نظام العقوبات الباسيلى كان يبغى استبدال الخطية بالفضيلة المضادة لها ، ونجد أساساً نظرياً لهذه الممارسات التربوية فى كتابات اغريغوريوس النيصى الذى كتب قائلاً أن الخطية ليس لها جوهر خاص بها ، بل هى غياب الفضيلة[٧٢] ، وبالتالى فإن غرس وإنماء الفضيلة هو أفضل وسيلة لمحاربة الشر والخطية الموجودة فعلاً .

وكان على الرئيس أن يأخذ فى اعتباره من هو المخطئ وشخصيته وقامته ثم يوقع عليه العقوبة وفقاً لذلك[٧٣] ، وهكذا يفرض النظام الباخومى ٨٠ ميطانية للراهب المتقدم فى الرهبنة ، و٥٠ ميطانية للراهب الصغير لأجل نفس الخطية[٧٤] ، والقديس يوحنا الدرجى ينبه الرئيس إلى أهمية وضع شخصية المخطئ فى الاعتبار من حيث قامته وقانونه وقدمه فى الحياة الرهبانية .

أما عن أنواع العقوبات التى استخدمتها الأديرة ، فكان هناك نوعان أساسيان:

١) العقاب الجسدى

٢) العقاب الروحى

وكانت درجة شدة العقاب تتحدد وفقاً لطبيعة الخطأ وشخصية المخطئ ، كما أسلفنا ، فمثلاً الشخص الذى يحضر إلى خدمة ليتورجية فى الكنيسة متأخراً ، لا يستطيع أن يدخل الكنيسة بل يجلس نادماً عند العتبة

بينما يخرج الرهبان من الكنيسة ، وفى حالة بعض الأخطاء الجسيمة ، كان الأخ يحرم من العبادة الجماعية ، أما الأخطاء الأخرى مثل التشاجر أو الكبرياء أو الخروج بدون إذن ، فكانت تعاقب بالطرد ، ويروى لنا التاريخ الرهبانى أن القديس باخوميوس أمر ذات مرة أحد الرهبان بخلع زى الرهبنة وترك الدير(٧٥) ، وكانت هذه عقوبة بالغة القسوة ، لكن أقسى عقوبة على الاطلاق كانت الحرمان من الأب الأسقف .

والدراسة المدققة لكتاب «الأقوال» فيما يختص بالتأديبات ، تأتى بنا إلى استنتاج أن النساك الأوائل لم يسمحوا أن يؤدب الأخ المخطئ من قبل أى أحد غير أبيه الروحى الذى كان له وحده حق تأديبه وتهذيبه ، أى أن الأب الروحى وحده هو الذى يضع قانون تلميذه(٧٦) .

وكان الرهبان الأوائل يؤمنون أننا جميعاً تحت التأديب ولذلك نفينا من الفردوس ، ولأننا نحن أنفسنا مذنبون لذلك لا نستطيع أن نحكم على الأخرين ونأدبهم بل الله فقط هو الذى يستطيع ذلك ، وهذه رؤية هامة تميز بين الرهبنة التوحدية ورهبنة الشركة ، ولم يكن القديس باسيليوس موافقاً على هذا الرأى ، بل كان يؤمن أن واجب الإنسان تجاه أخيه هو ألا يسمح له بأن يضل عن طريق البر ، ويجب عليه أن يحذر أخاه ويصلحه(٧٧) ، بيد أن أحداً من القادة الكبار فى البرية لم يتفق مع باسيليوس فى هذا الصدد(٧٨) .

لكن بمرور الوقت ، ادرك الرهبان أن لحياة الشركة قوانينها التى تختلف عن قوانين القلاية ، وأرسوا مبدأ سلطان رئيس الدير فى تعليم وتأديب الرهبان الذين لا يطيعون ويهملون واجباتهم ، لكن يجب أن يفعل

ذلك فقط مع رهبان ديره وليس مع أخرين من خارج ديره(٧٩) .

٢) الجعالات

رغم أن رهبان الوحدة ورهبان الشركة كان لهما رأيان مختلفان فى موضوع العقوبات والتأديبات إلا أنهما يتفقان تماماً فى رؤيتهما للمكافأت فكانوا جميعهم ممسكين جداً فى مكافأة تلاميذهم ، والسبب وراء ذلك هو أنهم اعتبروا المديح وكل نوع من الجعالة دافعاً للشر ، لأن هذه الأمور تشجع الكبرياء الذى أراد الرهبان أن يهربوا منه بسائر أشكاله لأنه سبب السقطة الأولى ، ولذلك يحذر الأدب النسكى الرهبان وينصحهم أن يكونوا حذرين للغاية من الذين يمتدحونهم ويوقرونهم(٨٠) ، ويقول الدرجى أن الله يخفى عن أعيننا الكمالات التى اقتنيناها ويضيف أن: «ذاك الذى يمتدحنا أو بالأحرى يضلنا يفتح أعيننا بمديحه ، وما إن تنفتح عيوننا حتى يتبدد كنزنا»(٨١) .

كما رأى آباء البرية أنه ليس هناك من الأسباب ما يدعو لامتداح أى إنسان إذ أن أى صلاح فى الإنسان إنما هو عطية من الله ، ومن المخجل أن نمدح بزينة الأخرين ، لكن فى نفس الوقت لم يمتنع آباء البرية عن تذكير تلاميذهم بالجعالة السمائية كى يشددوهم ويقووهم فى جهادهم المضنى لأجل الخلاص(٨٢) .

وبجانب ذلك أكد التقليد الرهبانى دوماً أن الإنسان يجب ألا يترهب خوفاً من الله أو سعياً وراء الجعالة الشخصية بل الدافع الوحيد المقبول تماماً هو محبة الله ، فأنطونيوس «أبو الرهبنة» قال: «أنا لم أعد أخاف الله لأنى أحبه»(٨٣) .

في ضوء ما ذكرناه يمكننا أن نرى كيف كان لآباء البرية نظام كامل للوسائل التعليمية منبني ومؤسس على الأفكار النظرية عن التربية وخاصة مبدأ التفرد الشخصي .

المراجع

1) *Varsanuphius and John*, P.OR XXXI, Fasc 3, 457.
2) Gregory of Naz., *Oration II*, 30-32, P.G. 35, pp. 437-438.
3) Clement of Alexandria, *Instructor*, ed. O. Stahlin, I, 133, Leipzig, 1936.
4) John Climacus, *Klimax XXXI*, p. 174.
5) *Apophthegmata*, P.G. 65, pp.188c, 232, 273, 405, 440.
6) Basil, *On the Spirit*, XV, P.N.F., VIII, 21.
7) Isidorus of Pelusium, *Epistola* I, 441, P.G. 78, 425B.
8) John Climacus, *Klimax XXXI*, p. 174.
9) Gregory of Nyssa, *Catechetica Magna*. P.G. 45, 10.
10) Gregory of Naz., *Oration II*, P.N.F. VII, 210.
11) *Entolai Pachomii*, V.H.P. XL, 114.
12) *Vita Pachomii*, quoted in Chitty's *The Desert a City*, Oxford, 1966. p. 26 and 25.
13) *Apophthegmata*, P.G. 65, pp. 81, 253, 303, 324, 325.
14) Ibid., p. 301D.
15) Paschos, *Gerontikon*, Athens, 1970, p. 164b and 118b.
16) Basil, *Reg. Fus.*, XXV, P.G. 31, 984C.
17) Palladius, *The Lausiac History*, ed. C. Butler, Cambridge, 1898, p. 234.
18) Basil, quoted in K. Mouratides' *Christokentrike Poimantike*, Ahens, 1962, p. 68.
19) Ibid.
20) *Bios Pachomiou*, V.H.P. XL, pp. 176-178 and 180.
21) *Apophthegmata*, P.G. 65, pp.208, 209, 333, 365-68.
22) John Climacus, *Ladder*, pp. 144 and 203.
23) Wallace-Hadrill, *Greek Patristic View of Nature*, N.York, 1968, p. 124.
24) Ammonas, Letter V, V.H.P. XL, 160.
25) Maximus Confessor, *Questions*, P.G. 90, 840B .
26) Dionysios Hareopagite, *De Ecclesiastica*, P.G. 3, 480A.

27) *Bios Pachomiou*, VI, V.H.P. XL, 132.
28) Sozomen, *Historia Ecclesiastica* III, 14, P.G. 67, 1069.
29) O. Chadwick, *John Cassian*, Cambridge, 1968, p. 56.
30) Sozomen, *Historia Ecclesiastica* III, 14, P.G. 67, 1069-1072.
31) Dorotheos, *Doctrina* I, P.G. 88, 1632C-1636A.
32) Maximus Confessor, *Questions*, P.G. 90, 840-841.
33) Sozomen, *Historia Ecclesiastica*, P.G. 67, 1072A.
٣٤) بستان الرهبان - الطبعة الثانية — عام ١٩٥٦م - صـ ٦١.
٣٥) نفس المرجع السابق - صـ ٩٧.
36) *Apophthegmata*, P.G. 65, pp. 100-101.
37) Evagrius of Pontus, *Capita Practica*, P.G. 40, 1249B.
38) Basil, *Hexaemeron*, P.N.F., VIII, 103, 106.
39) Cyril of Jerusalem, *Catechesis*, IX, 13, P.G. 33, 652B.
40) Ammonas, *Letter* IV, V.H.P. XK, 53.
41) *Apophthegmata*. P.G.65, 420 and 173.
42) Ephraem Syrus, *Ascetic Works*, by Sakkoraphos, p. 22.
43) John Climacus, *Ladder* XXVI, p. 203.
44) *Apophthegmata*, P.G. 65, 440A, and 364C.
45) Ibid., p. 197 and 224.
46) *Gerontikon*, p. 114B .
47) *Apophthegmata*, P.G. 65, 337.
48) Basil, *Homilia in Psalmum* 47, P.G. 29, 457.
49) Gregory of Nyssa, *De Virginitae*, P.G. 46, 409-412.
50) Isidorus of Pelusium, *Epistola*, P.G. 78, 1537C. Nilus the Ascetic, *Homily*, Philokalia, I, p. 205 and 206.
51) Clement of Alexandria, *Stromata* I, 1, A.N.F. II, 300.
52) Br. Joyce, *Alternative Models of Elementary Education*, Waltham Mass.: 1969, p. 106f.
53) Ph. Jacob, *Changing Values in College*, N.York: 1956.
54) Basil, *Hexaemeron* IX, 9, P.N.F., VIII, 106.
55) Ephraem Syrus, *Ascetic Works*, ed. Sakkoraphos, p. 27.
56) Athanasius, *Vita Antonii* LV, V.H.P. XXXIII, 39.
57) *Vita Antonii*, quoted in Wigg's *Warriors of God*, London, 1939, p. 39.
58) Varsanuphius and John, *Questions LXXXV*, P.OR. XXXI, 565.
59) John Climacus, *Ladder* XXVII, p. 239.
60) Basil, *Reg. Fus.*, XXVI, P.G.31, 985.
61) *Apophthegmata*, P.G. 65, 201.
62) Basil, *Reg. Brev.*, LXXXI, P.G. 31, 1140.

63) *Apophthegmata*, P.G. 65, 325.
64) Ibid., 217-218 and 336.
65) Gregory of Naz., *Oration XVI*, P.N.F., VII, 253.
66) *Vita S. Marinae*. P.L. 73, 693.
67) Clement of Alexandria, *Instructor*, I, 5, A.N.F. II, 213.
68) *Bios Pachomiou*, V.H.P., 40, 154.
69) Ibid., XL, 165.
70) Basil, *Reg. Brev.*, P.G.31, 1109D and 1165B.
71) Basil, *Reg. Fus.*, XV, P.G.31, 1040-41 and 953.
72) Gregory of Nyssa, *Catechetica Magna*, P.G. 45, 24-25.
73) Basil, *Reg. Brev.*, XCI, P.G.31, 1140A.
74) Pachomius, *Epitimia*, V.H.P., XL, 127.
75) *Peri Pachomiou*, V.H.P. XL, 194.
76) *Apophthegmata*, P.G. 65, 121B, 284A,.
77) Basil, *Reg. Brev.*, III and IV , P.G.31, 1084.
78) *Apophthegmata*, P.G. 65, 328C, 352A.
79) Ibid., p. 305A .
80) Ammonas, *Parainetika*, V.H.P. XI, 62.
81) John Climacus, *Ladder* XXII, p. 175 and 181.
82) Macarius the Egyptian, *Homily* IV, V.H.P., XLI, 159.
83) *Apophthegmata*, P.G. 65, 85C.



الفصل الخامس

الرهبان والثقافة

Monks and Culture

أ) موقفهم من الثقافة

إن مصطلح «الثقافة *Culture*» كما هو مُستخدم هنا يعنى كل نوع من الأنشطة الخاصة بالكتب والنمو العقلى والجمالى ، وبصفة عامة مجموع الأعمال والنشاطات الفكرية ، والرهبانية بل والمسيحية فى عمومها لم تعتبر الثقافة هدفاً أو غاية فى حد ذاتها لأن أمور كل هذا العالم ستبطل ، فالرهبان الذين جحدوا العالم وكل ثقافته لم يقبلوا إلا العناصر الثقافية التى رأوا أنها تخدم أهدافهم ، وكان القديسون ـ وليس الدارسون أو العلماء ـ نماذج وقدوة كل راهب ، كما كان الرهبان الأولون بصفة خاصة متشككون من «المعرفة العالمية» إذ رأوا أنها نابعة من منظور وفهم مختلف تماماً للحياة ، وكانوا يسعون لنسيان الشعر والفلسفة وكل صنوف المعرفة الأرضية التى تعلموها فى المدارس قبل رهبنتهم وليس بتعلم أى شئ جديد[1] ، وهكذا كان القديس الأنبا أنطونيوس أب الرهبان أمياً تماماً ، فنقرأ فى سيرته:

«وحدث ايضاً أن اخرين من مثل هؤلاء (الفلاسفة) التقوا به فى الجبل الخارجى ، وفكروا أن يهزأوا به لأنه لم يتعلم الحروف ، فقال لهم أنطونيوس: ماذا تقولون؟ ما الذى وُجد أولاً العقل أم الحروف؟ وأى

منهما سبب الآخر؟ فأجابوه: العقل وُجد أولاً وهو مخترع الحروف ، فقال أنطونيوس: إذاً كل من له عقل صائب لا يحتاج للحروف» .[٢]

وقد اعتبرت الرهبنة بصفة عامة أن «الحروف» أى المعرفة ، وسيلة نافعة لتحقيق أهدافها ، فعبر القديس باخوميوس المشرع الرهباني الأول فى قانونه عن اهتمام بتعليم تلاميذه جميعهم [٣] ، وأمر أن يظل المبتدئ ـ قبل قبوله ـ خارج الباب عدة أيام ويتعلم كيف يقرأ ويكتب ويحفظ عن ظهر قلب مقاطع من الأسفار المقدسة خاصة الصلاة الربانية وأكبر عدد من المزامير يستطيع حفظه[٤] ، وبعد قبوله ، كان على المبتدئ أن يتعلم «الأبجدية النسكية» (أى الفضائل والجهادات الرهبانية) إذ كانوا يؤمنون بأهميتها العظيمة بالنسبة للراهب[٥] ، أما ساعات الفراغ فكان من الضرورى أن يشغلها الراهب بالقراءة فى الكتاب المقدس الذى كان يحفظ غالباً ، وقد كان هذا الحفظ العقلى إجبارياً فى دير الأنبا باخوميوس[٦] .

وقد أكدت الرهبنة الأولى بشدة على حفظ المزامير والعهد الجديد ، وكان الحفظ عملاً شائعاً بين الرهبان الأوائل وعنصراً أساسياً للتعليم فى العصور المبكرة والوسطى ، واعتبره القانون الباسيلى وسيلة نافعة للغاية لتدريب المبتدئين[٧] ، ولكن لابد أن نذكر أن هذا الحفظ لم يكن عملاً آلياً ، بل جهد عقلى تأملى كما يتضح من «مؤسسات» يوحنا كاسيان: «ليس عدد الآيات التى تردد هو الذى ينبغى أن يكون هدفنا ، بل الأفضل أن نرنم آيتين بفهم من أن نرنم المزمور كله بأفكار مشتتة» .[٨]

بل وحتى أثناء تناول الطعام فى المجمع (المائدة) ، كان هناك قراءات يستمع إليها الإخوة بانتباه حتى لا تتشتت أذهانهم باللذة الجسدية فى

الطعام ، وكانوا يفرحون بكلمات الرب التى هى «أحلى من العسل وشهد العسل» كما يقول المزمور الثامن عشر ، ولا تزال هذه العادة مستمرة وحية حتى الآن فى أديرتنا القبطية العامرة فيقرأ بستان الرهبان أثناء المائدة .

وليس فقط الكتب المقدسة بل وايضاً الكتب العادية كانت رفيقاً دائماً للراهب ، وفى «الأقوال» وتاريخ بالاديوس وتاريخ ثيؤدورت نقرأ عن العديد من الرهبان محبى الكتب(٩) ، وفى بعض الأحيان عندما كانوا يعيشون الفقر فى أقصى درجاته ، كان يعطى لهم تصريحاً بإقتناء الكتب ، ومن بين القوانين السريانية الرهبانية ، هناك قانون للراهبات يمنع الزوار من تقديم أى شئ للدير ما خلا الكتب(١٠) ، وعندما كان الرهبان يفرغون من قراءة كل الكتب التى عندهم ، كانوا عادة يستعيرون كتب أخرى من إخوتهم الرهبان ، وقد وصلنا خطاب رقيق من راهب قبطى يطلب أن يستعير كتاباً مكتوب فيه:

«نحيى أبوتكم الموقرة التقية
تعطفوا ـ إذا سركم الأمر ـ واعطونا كتاب يسوع (ابن) نوح
لأنهم يكتبون إلينا (و) نحن لا نجد نسخة.. تعطفوا به..
وداعاً فى ربنا يا إخوتى أنبا دانيال ، يوحنا الكاهن..
من توما الحقير... ».(١١)

وكان للأديرة عادة مكتباتها التى تعتبر كنزها وذخائرها ، وفى سيرة الأنبا دانيال العمودى (٤٠٩-٤٩٣م) نقرأ :

«لأنها عادة فى الأديرة أن توضع كتب كثيرة متنوعة أمام الهيكل ، وإذا اراد أى أخ كتاباً فإنه يأخذه ويقرأه» .(١٢)

وفى أغلب الأحيان ، لم تتضمن مكتبات الأديرة كتباً دينية فقط ، بل العديد من الكتب المختلفة[١٣] ، وفى العصر البيزنطى على وجه الخصوص ، صارت الأديرة خزائن للمعرفة القديمة التى بلغها الكثيرون ، فوجد محبو المعرفة والتعلم فيها أفضل مواضع يمكنهم أن يشبعوا فيها محبتهم للدراسة ، وكان الرهبان يرحبون دوماً بهم .

وكانت الأديرة مسئولة عن حفظ التراث من الاندثار والجهل المدمر الذى بدأ يدق ناقوس الخطر فى القرن الخامس ، فقدم الرهبان خزانة آمنة لسجلات التاريخ الماضى وذلك بالحفاظ على المخطوطات والوثائق .[١٤]

ومن المثير للدهشة أن نعرف أنه حتى القديس باخوميوس نفسه ، أول مشرع رهبانى ، وضع قوانين لحماية الكتب والمكتبات ، فنقرأ: «إذا أخذ أحد كتاباً ولم يهتم به بل ازدرى به ، يصنع خمسين ميطانية» .[١٥]

وبالإضافة إلى أن العديد من المخطوطات قد حُفظ نتيجة لهذا الإهتمام الثقافى الرهبانى ، فإن عدداً كبيراً آخر قد نُسخ فى المناسخ الرهبانية (وهى حجرات النسخ فى الأديرة) ، إذ بحسب التقليد الرهبانى ، كان يُنظر إلى نَسخ المخطوطات كواجب مقدس يشترك فيه الرهبان ورؤساء الأديرة ، وتقدم لنا السجلات الرهبانية من عصور وأماكن مختلفة معلومات عن عمل نسخ المخطوطات ، فمثلاً فى وصف بالاديوس لدير الأنبا باخوميوس نقرأ:

«أعمالهم كانت على النحو التالى: واحد يعمل فى الأرض ، وآخر فى المصبغة، وآخر فى المنسخ...» .[١٦]

وتتحدث «الأقوال» عن راهب يُدعى ابراهيم كان نسّاخاً ، وچيروم فى إحدى رسائله يتحدث عن الرهبان الذين يعملون بنسخ المخطوطات ، والراهب هيراكس *Hierax* المتوحد والذى عاش فى النصف الأول من القرن الرابع ، كان خطاطاً واستمر يكتب حتى تنيح عن ٩٠ سنة(١٧)، وفى سيرة مارالوس *Marallus* والقديسة ميلانيا ، نقرأ أن عملهما كان نسخ الكتب ، وهكذا نجد أن تقليد نسخ المخطوطات استمر متوارثاً عبر تاريخ الرهبنة .

ومن البين أن نسخ المخطوطات كان عملاً شائعاً بين الرهبان الأوائل ، وأن محبتهم للتعلم والدراسة هى التى حركت أقلامهم ، وهذه المحبة حفظت لنا وورثتنا ما تبقى من الأدب اليونانى واللاتينى الذى لو كان الحال غير ذلك لاختفى مثل الأدب البابلى والفينيقى .

ولم يكن نسخ المخطوطات عملاً ألياً ، بل كان له تأثير فكرى وروحى مثله فى ذلك مثل حفظ صفحات الأسفار ، فكان عملاً مقدساً كما رأينا ، ولذلك استخدمت صلاة خاصة لتبريك المنسخ (حجرة النسخ):

«أيها الرب تعطف وبارك هذا المنسخ الذى لخدامك وكل ما فيه ، كى إذا قرأوا هنا أو كتبوا أى كتابات مقدسة ، يفهمونها وينتفعون منها... بربنا يسوع المسيح آمين» (من القرن الثامن) .(١٨)

وكان هذا العمل شاقاً ومعقداً ، فبعض الرهبان كانوا ينسخون الكتاب ، البعض الآخر يجلّده ، أخرون يزينونه ، واخيراً ، راهب يراجعه ويصحح أخطاءه ، وكانت هذه الأعمال تتم فى حجرة خاصة تسمى «المنسخ *Scriptorium*» .

وإذ كان الرهبان يعيشون بلا تشتت فى سكون البرية ، منتبهين إلى داخلهم ،كان لديهم الكثير من الأفكار والمشاعر التى عبروا عنها فى رسائلهم إلى الاكليروس وإلى المؤمنين الذين طلبوا نصائحهم ، وايضاً فى الكتب التى كتبوها ، ومن المؤكد والمعروف أن إسهاماتهم فى مجالات الأدب والرسم والموسيقى والعمارة والفنون العملية ، كانت متميزة وهامة ، بل يمكن القول أن إنجازاتهم تعد من بين أفضل أعمال الإنسانية .(١٩)

٢) المدارس الرهبانية

Monastic Schools

إن الرهبنة الشرقية ، وهى دائماً مركز للنسك والتصوف ، لم تقصد ابداً أن تكون الأديرة مواضع للدراسة ، بل للسكينة الباطنية والتأمل ، وكان هدف الرهبان ليس أن يؤثروا فى العالم بل أن يهربوا منه ، وفى مرحلة مبكرة للغاية أكدت الرهبنة على أهمية البعد الدراسى فى الحياة المسيحية وصار هناك علاقة وطيدة بينها وبين «الحروف» كما رأينا ، وأراد باخوميوس أن يتمكن جميع الإخوة من القراءة وأن يحفظوا المزامير ومقاطع من العهد الجديد عن ظهر قلب ، والإخوة الذين لم تكن لهم دراية بهذه الأمور ، كانوا يعطون دروس ليتعلموا كما أسلفنا ، وقد أدت هذه الأنشطة التربوية التعليمية فى الرهبانية الأولى إلى نشأة المدارس الرهبانية للأطفال والتى ظهرت فى القرن الرابع ولعبت دوراً هاماً للغاية فى أوربا فى العصور الوسطى .

وفى الكنيسة الشرقية ، كان قبول الأطفال موضع جدل ونقاش ،

فالرهبان الأولون وقوانين العديد من الأديرة كانت تمنع قبول الأطفال ونهت الرهبان عن القيام بتعليمهم[٢٠]، ومع ذلك ، تبنى القديس باخوميوس وأخرون أطفالاً ، وكانوا يعاملونهم مثل المبتدئين ويضعونهم تحت إرشاد ورعاية رهبان شيوخ يصيرون آباء روحيين لهم ، وكان الرهبان يعلمونهم تعاليم روحية أكثر منها فكرية .

وقد سمح القديس باسيليوس ايضاً للأطفال بدخول الأديرة ووضع لهم نظاماً تعليمياً ، كما سمح ايضاً ـ بعد قدر من التردد ـ للأطفال الذين لم يكونوا يريدون أن يترهبوا بل يعيشون فى العالم أن يحضروا دروس يعطيها لهم الرهبان إذا رغب والداهم أن يرسلاهم[٢١]، ذلك أنه رأى فى الأديرة مكاناً نموذجياً للمدارس لأنها مواضع هادئة ، وحدد فى قانونه أن تبنى مبانى خاصة لتستخدم كمدرسة... كذلك كان يوحنا فم الذهب مؤيداً ايضاً لفكرة المدارس الرهبانية .[٢٢]

ويبدو أنه فى نهاية القرن الرابع ، كانت بعض المدارس الديرية قائمة بالفعل ، وقد تعلم فم الذهب فى مدرسة هكذا فى أنطاكية ، وجيروم ايضاً كان عنده مدرسة للأولاد الرومان فى ديره فى بيت لحم ، حيث كان يدرس لهم النحو والشعر والتاريخ .[٢٣]

أما فيما يختص بالمنهج الذى يدرس وطرق التدريس فى المدارس الرهبانية ، فلا تتوفر لدينا معلومات وافية من المصادر الرهبانية ، بيد أنه يمكننا أن نستقى بعض المعرفة عنها من قانون باسيليوس ومن كتابات أخرى ، رغم أنه لم يكن هناك منهج ثابت موحد فى سائر المدارس .

يرى القديس باسيليوس ـ متفقاً فى ذلك مع أفكار أفلاطون وأرسطو ـ أن الطفل[٢٤] يجب أن يبدأ دراسته بالمدرسة فى سن السابعة ، ويبدأ الأطفال بتعلم الأبجدية ، إذ يكتب لهم مدرسوهم حروفها بشكل واضح وهم ينسخونها ، وأثناء ذلك ينطقونها بصوت عالٍ .

وكانت الأسفار المقدسة ، وبالأخص سفر المزامير ، تُستخدم كنصوص للقراءة ، ونصح القديس إيسيذروس الفرمى باستخدام أمثال سليمان التى وجدها باسيليوس ايضاً نافعة فى هذا المضمار .[٢٥]

وبحسب باسيليوس ، كانت هذه المدارس تدرس التاريخ ـ الذى اعتبره باسيليوس مادة هامة للغاية ـ والأحياء[٢٦] والموسيقى التى كانت تعتبر ذات تأثير نافع على الأطفال ، كما يؤكد فم الذهـب على أهمية وفائدة الألحان الكنسية .

ولم يكن باسيليوس مؤيداً لتدريس الرياضيات والفلك ، أما التربية الرياضية فلم تكن متضمنة فى المنهج لأنها كانت تعتبر ذات أهمية ضئيلة للغاية... ومن بين الفنون العملية ، كان التلاميذ فى المدارس الرهبانية يتعلمون الزراعة ، البناء ، الحياكة ، الشغل بالجلد ، ومهارات أخرى نافعة .

وينصح باسيليوس[٢٧] المدرسين أن يكونوا واضحين وموجزين ، وأن يستخدموا لغة بسيطة سهلة ، وأن يبتعدوا عن المعانى المجردة والشرح المجازى للموضوعات .

ويريد باسيليوس[٢٨] أن يكون المدرس ناضجاً فى السن ، مختبراً ،

مؤثراً ، لأن أحد متطلبات التعليم هو احترام الطلاب لمدرسهم وثقتهم فيه لكنه أراد ايضاً أن يكون المعلم تقياً متضعاً .

اخيراً لابد أن نذكر أنه فى العصور البيزنطية المبكرة ، كان للمدارس الرهبانية تأثير محدود بسبب ضآلة عددها ، ولأنها كانت لأجل تعليم هؤلاء الذين ينذرون أن يترهبوا أكثر منها لتعليم الأطفال الذين لن يترهبوا ، وهكذا كان القصد من هذه المدارس هو تعليم الأشخاص الذين داخل إطار الرهبنة .

وباختصار ، كان الرهبان مهتمين بالثقافة العقلية والفكرية بقدر ما هى تسهم فى خدمة أهدافهم الروحية ، وفى الوقت عينه ، كان لهم إسهاماتهم للأدب وللفنون الرفيعة ، وقد علق هارناك *Von Harnak* على ذلك بقوله أن كل ما هو جميل يأتى من هؤلاء الذين جحدوا العالم .

وقد قدم الرهبان بالفعل خدمة جليلة للفنون والشعر والعلوم ، لكن هذا الإسهام الحضارى لم يكن مقصوداً إلى حد ما ، فالراهب لم يكن يهدف أبداً إلى كتابة قصيدة شعر بل يريد نوال رحمة الله ولذلك يكتب صلاة ، أو يريد أن يرسم أيقونة ليعبر عن حبه لله وليس لأسباب فنية فبينما نحن ننظر إلى هذه الأعمال كقطع من الفن الرفيع والأدب ، اعتبرها الرهبان ببساطة وسيلة لتحقيق أهدافهم... فالرهبنة لم تبغ قط أن تخلق فنانين وعلماء بل فقط قديسين، وقد نجحت فى ذلك إلى حد كبير للغاية .(٢٩)

المراجع

1) H. Marrou, *History of Education*, p. 439.
2) Athanasius, *Vita Antonii*, P.N.F. IV, 215.
3) *Pachomii Praecepta*, P.G. 40, 949A.
4) Pachomius Rule, qouted in P. Monroe in *A Text Book in History of Education*, p. 256.
5) John Climacus, *Ladder XXVI*, p. 204.
6) Palladius, *Historia Lausiaca* XL, P.G. 34, 1105B and 1034B.
7) Basil, *Reg. Brev.*, XCV, P.G. 31, 1084C and Ibid., CCXXXV, P.G. 31, 1240C.
8) John Cassian, qoute. in *Workman's Evaluation of Monastic Ideal*, p. 131.
9) *Gerontikon*, p. 118A.
10) A. Voobus, *History of Asceticism*, Tomus 17, p. 388.
11) *Varia Coptica*, ed. W.Crum, p. 32.
12) El. Dawes, *"Life of St. Daniel"* ed. Dawes, Three Byzantine Saints, p. 8.
13) A. Voobus, *History of Asceticism*, Tomus 17, p. 389.
14) Er. Goodenough, *The Church in Roman Empire*, p. 116.
15) Pachomius, *Poenai*, V.H.P., XL. 128.
16) Palladius, *Hisoria Lausiaca*, P.G. 34, 110B.
17) Epiphanius of Salamis, *Contra Hereses* II, P.G. 42, 176.
18) J. O'Connor, *Mansticism and civilization*, p. 113 and 122.
19) Fr. Eby, *History and Philosophy of Education*, p. 638.
20) Ph. Koukoules, *Bios Byzantinon*, I, 36.
21) Basil, *Reg. Fus.*, XV, P.G. 31, 953.
22) Chrysostom, *Adversus Oppugnatores*, III, P.G. 47, 380.
23) Rufinus, *Apology II*, 8, P.N.F. III, 464-465.
24) Plato, The Laws Z, 796C, ed. E. England, p. 60. Aristotle , Politica H.A., ed. W. Ross, p. 251.
25) Basil, *Homilia in Psalmum I*, P.G. 29, 212. Isidorus of Pelusium, *Epistola*, P.G. 78, 1092. Basil, *Reg. Fus.* XV, P.G. 31, 953C.
26) Basil, Homilia II in Hexameron, ed. J. Garnier, I.
27) Basil, *Scholum*. P.G. 36, 1205. *De Baptismo* II, 6, ed. J. Garnier, II, 639. *Homily IX to Hexameron* , ed. J.Garnier, I, 80.
28) Basil, *Reg. Fus.*, XV, P.G. 31, 953.
29) Ed. Myers, *Education in the Perspective of History*, p. 169.

الفهرس

من إصدارات

«أخثوس ΙΧΘΥΣ»

سلسلة آباء الكنيسة

١) القديس إيريناؤس أسقف ليون
٣) العلامة بنتينوس السكندرى
٥) العلامة يوسابيوس القيصرى
٧) القديس ديديموس الضرير
٩) العلامة لاكتانتيوس
١١) القديس ميثوديوس الأوليمبى
١٣) البابا ألكسندروس
١٥) القديس إيڤاجريوس البنطى
١٧) القديس كيرلس الكبير
١٩) الرسالة إلى ديوجنيتس
٢١) القديس إبيفانيوس
٢٣) البابا ديونيسيوس الكبير

٢) القديس يوحنا التبايسى
٤) القديس سيرابيون
٦) القديس أموناس
٨) الآباء المؤرخون
١٠) القديس بوليكاربوس
١٢) القديس إيلاريون الكبير
١٤) يوحنا كاسيان
١٦) أفراهات السريانى
١٨) أمهات قديسات
٢٠) العلامة ترتليان
٢٢) ثيوفان الحبيس
٢٤) جهّال من أجل

٢٥) القديس يوستين الشهيد والآباء المدافعون
٢٦) القديس إغريغوريوس صانع العجائب
٢٧) القديس هيلارى أسقف بواتييه
٢٨) القديس إيسيذروس الفرمى

